شاكر الأنباري

مكتبة نوميديا 221

Telegram@ Numidia_Library

بلاد سعيدة

رواية

التكوين

روايات عربية

- الكتاب : **بلاد سعيدة**
- الكاتب : **شاكر الأنباري**
- الطبعة الأولى: **آيار 2008**

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

للتأليف والترجمة والنشر

دمشق – حلبوني - الجادة الرئيسية
تلفاكس 2236468 جوال 0944 330989
WWW.ATTAKWIN.COM
INFO@ATTAKWIN.COM
taakwen@yahoo. com
ص . ب : 11418

1

عبر ضوء الشمس الى الصالون من خلال ستائر المخمل السميكة. أصوات العصافير أسمعها قادمة من بين سعف النخيل. والحديقة مغطاة بالندى دون شك. الشتاء يطرق أبوابنا بقوة هذه السنة. ارقد تحت الأغطية الثقيلة ورأسي مشوش ومضطرب. برودة خفيفة في الصالون. عتمة الزوايا لم تنجل كليا. أسمع قرقمة بعيدة صادرة من داخل البيت. أمي تعد الفطور لنفسها. لمياء والأولاد لم يفيقوا بعد. الساعة مبكرة في البلدة بالتأكيد. وفي رأسي أزيز مزعج لطائرات وانفجارات وصراخات ونداءات. تختلط لتصبح مزيجا غير مريح. مر الليل وسمعت كما في حلم قصفا بعيدا ربما حوالي الفلوجة. الكوابيس التي أراها ليلا أصبحت هي حياتي المظلمة. أصبحت حياة ثانية. حتى انني لم أعد احكيها لأحد. لست جائعا. ورغبة الأكل تلاشت منذ الحادث. كان كل ما أرغبه هو الهدوء. رغم أنني كنت هادئا طوال حياتي. سماني أصدقائي بالمتأمل. فعلا كنت اتأمل كثيرا وأتكلم قليلا. تلك هي طبيعتي حتى قبل ان اصاب في راسي. لم اعد راغبا في الطعام، والعمل، والنقود، والجنس. حتى لمياء، زوجتي، كفت عن اغراءاتها لي، بعدما لمست البرودة المستولية علي. أطلب الهدوء لنفسي، لروحي، لذاكرتي التي تفور بعض الأحيان مثل مرجل، وتسكن في أحيان أخر لتصبح مثل سطح ورقة بيضاء. تصبح

مثل سطح الفرات في الصيف. تلك الأصياف الرائعة ودعناها منذ سنين. الذباب الطائر على الماء. القوارب العابرة بين الضفتين. الرعاة الملوحون بعصيهم على الغنم. بيوت الرمل التي طالما بنيناها بين نباتات الحلفاء. القصص الغامضة والخفية بين النساء والرجال. قصص الحب. المعارك الصغيرة بين البيوت. بين النساء. كل ذلك مات مع الماضي وغار في صحراء البياض التي نجول فيها.

لقد عصف الانفجار براسي دون رحمة. وخلخل شيئاً ما في نسيج دماغي. لا أريد أن اصبح مجنوناً. أريد أن أعيش كما كنت في السابق، مع لمياء والأبناء وأمي واخوتي. بلدة الحامضية لن تعود كما كانت من قبل. تغير كل شيء فيها بين ليلة واخرى. أزيز بعيد يختلف عن صوت سيارة أو صوت مضخة مياه أو قطعان غنم. ها هم قادمون. هذا وقتهم بالتأكيد. لن يتركونا بسلام. أسمع هدير الطائرات بعيدا من البيت، فهو يباغتنا كالعادة بأزيز خفيف، مثل الذي في رأسي، ثم يشتد قليلا قليلا، الى أن يتحول الى صوت عميق ومرعب. يشتد الى أقصى درجة حين تمرق الطائرات من فوق البيت. عادة ما يطيرون زوجا زوجا. كلما انشق الظلام عن يوم جديد نبدأ بتوقع الانفجارات. ثم نعدها. ثم نحدد الجهة التي تأتي منها. انها مهنة جديدة امتهناها. قال أخي سعيد، بعد عودته، إنه حتى في الحلم لم يكن يتصور أن الطائرات الأميركية ستحلق يوما فوق بيتنا في الحامضية، وأن الاميركان سيقيمون لهم معسكرا قرب المقبرة.

طائرتان دائما. نوع أباشي. نوع كوبرا. نوع الشيطان. من يعلم؟ لكن طائرتان دائما، اذا ما تعرضت واحدة للعطب يمكن للثانية أن

تقدم المساعدة. الهدير يتقدم مني، رأسي يطن بترجيع مرعب. وترتسم أمامي الشظايا، والدخان، ونثار الخشب، وذلك الانفجار الرهيب الذي أرسلني الى الموت لولا الصدفة. الصدفة فقط هي التي حافظت على حياتي. لكنها ليست الصدفة التي بعثت أبي الى الجنة. إنه في الجنة بلا شك. هو وحفيده حسن. لقد ماتا شهيدين. هما والآخرون. الجميع في بلدة الحامضية يقولون ذلك ويؤكدونه. لقد مضى وترك بقاياه في الصالون. هناك أستطيع رؤية فروته، معلقة على نضد الملابس، وبجانبها دشداشته البيضاء وغترته وجاكيته الداكن وعباءته الصوف الأنيقة التي اشتراها حديثا لكي يلبسها في صبيحة العيد. أخذ سعيد مسبحته. كي يتبرك بها كما قال. سعيد يسكن في شارع فلسطين وسط بغداد هو وزوجته السورية التي جلبها معه. قالت أمي لن يمس أحد ملابسه. ستبقى في مكانها. وسنظل نعتبره موجودا في الصالون، كما اعتاد ذلك خلال عشرات السنين. خلال تلك السنوات الطويلة ظل أبي محور العائلة. فهو القطب الذي يجمع الأخوة والأخوات، الأحفاد والحفيدات. لحيته البيضاء الطويلة أول شيء أدهش أخي سعيد بعد رجوعه الى البيت. لحية تشبه لحى المتصوفة والدراويش كما قال. غير أن أبي لم يكن درويشا أو متصوفا. مجرد زاهد بمغريات الحياة. بعد أن خبرها أكثر من خمس وسبعين سنة.

أمي تعد الآن الفطور مثل كل يوم. البيض المقلي واللبن الخاثر والخبز الحار الذي خبزته في التنور الحديث. مضى زمن التنانير القديمة التي برعت أمي ببنائها من الطين. اشترينا قبل عشر سنوات

تنورا من النوع الحديث، يعمل على الغاز، مجاراة للحياة العصرية التي راحت تنتشر مظاهرها في الحامضية مثل بقية أراضي الدنيا. لم لا. التطور يفرض نفسه على البشر. أسمع خطوات امي تتقدم الى الصالون. لا بد انها تسعى لايقاظي. لا أريد أن أستقظ. لا اريد أن أفطر. ليس عندي شهية الى الطعام. ذرذرات النور تتقافز على السجادة والكراسي وفراشي الملقى على السجادة. أحيانا يذكرني الضوء بحقيقة مهمة الا وهي أنني لم أمت وينبغي أن أواصل الحياة. ينبغي أن أرى نهاية الأحداث التي عصفت بنا. الرواية التي اعيشها مرعبة. أخي سعيد قال هذا التعبير في احدى الليالي حين كنا نجلس في حديقة أخي كمال.

أسمع من مكان ما، فوق رأسي، فوق سطح البيت واغصان الكينا، أزيز الذبابة. تلك الطائرة الملعونة. الطائرة البيضاء الصغيرة دون طيار. تحوم كل يوم. تدور فوق سعف النخيل واحداق البقر وهوائيات الصحون اللاقطة. تئز دائما. في الفجر والظهيرة. في الصباح والمساء. ماذا ترصد، لا احد يعلم. قال أحمد الأعرج، قصاب الحامضية سابقا، انها ترسم خرائط لحقول النفط. لكن الحامضية لا تحتوي نفطا. عدا الحقول والبساتين فهي تختنق بين أصابع الصحراء. كما أن صحراء الجزيرة لا تحتوي على النفط. هل جاء الأميركان الى الحامضية من أجل النفط؟ هذا السؤال يرتسم دائما في رأسي. كل هذه الضجة من أجل ذلك السائل الأسود العفن الرائحة؟

- محمد، إبني، هل أنت مستيقظ؟ هل تفطر؟

تظاهرت بالنوم. وأدرت وجهي الى الحائط. لم أجبها. ظنت أنني نائم. ظلت واقفة برهة، ثم عادت الى داخل البيت. أعرف أنها ستحاول ايقاظ لمياء والأولاد، لكنها ستخفق بالتأكيد. الأولاد لن يذهبوا الى المدرسة هذا اليوم. لقد جاءهم أمر من المجاهدين بعدم الذهاب الى المدرسة. يفكرون بالقيام بعملية ضد الجيش الأميركي ما أن يدخل بلدة الحامضية. معسكرهم ليس بعيدا عن المقبرة. أستغرب من مهاجمتهم داخل البلدة. قد يذهب أبرياء نتيجة العملية مثلما حدث لبيت عمي. يوم آخر يفوت، يحرمون فيه من العلم. ما علاقة المدرسة بالجهاد. يقولون إنهم يأمرون بتعطيل المدرسة حفاظا على حياة التلاميذ. أعتقد أن الأمر ليس كذلك. لكن الأولاد فرحون بهذا المنع. سيتمتعون بعطلة مجانية. بالضبط مثلما كنا نحس في أيامنا. أيام المظاهرات والانقلابات والمناسبات القومية.المجاهدون يريدون أن يكونوا سلطة. لم لا. ما دامت السلطة غير موجودة يمكن لأي شخص ان يصبح سلطة. المهم هو ان يمتلك المرء سلاحا. فالسلاح اليوم سلطة. السلاح والجرأة على القتل. اليس هذا زمان القتل؟ لكن القتلة يتعبون ايضا. لا يمكن لأحد، مهما بلغ عتوا في الجريمة، ان يستمر بالقتل. كان أبي رحمه الله يردد دائما هذه المقولة البليغة: وبشر القاتل بالقتل. أمي ايضا تردد مقولة أبي. لكنها عادة ما تنظر متشككة بعد أن تقولها. وتعقب على نفسها قائلة: يمكن ان يكون هذا كلاما فقط. فالحياة تؤيد هذه المقولة أحيانا لكنها تنفيها في أحيان كثيرة. الذبح أصبح جهادا والقتل مقاومة للارهاب. ذكر أخي سعيد في واحدة من مقالاته المصطلحات الجديدة التي دخلت الى الحامضية.

كانت التفاتة ذكية منه. فعلا لم نسمع سابقا بمصطلح الذباح والأمير والجهاد والذبابة والأباشي والهمر والمولد والدفتر والورقة والنيت والعبوة والموبايل والشبكة والماسنجر، وغيرها كثير، ذكرها سعيد بعين المثقف الذكي الذي فارق بلدته اكثر من عشرين سنة. صار حتى الأطفال يروجون هذه المصطلحات في لغتهم وفي العابهم.

كان سعيد ودودا مع لمياء لانها كما قال أول عضو في العائلة رآها في الباب لدى عودته. يجلس معها في حديقتنا ويبدأ اسئلته عن البيوت واسرارها، وكانه بذلك يريد ملء الفجوة التي في رأسه وقد احدثتها سنواته خارج البلد. لمياء ما زالت على روحها المرحة رغم المآسي التي مرت علينا. لم أعد أنام مع لمياء والأولاد في غرفتنا كي لا أرعبهم. أب يرعب أطفاله! يرعب زوجته! أفيق أحيانا خلال الليل، وأنا أصيح بأصوات حيوانية مرعبة، كما لو أنني أحاول التملص من فم ذئب أو أسد، كما قالت لمياء. فجأة أنتفض من نومي وأبدأ ذلك العواء الرهيب، وهذا ما جعلني أنقل فراشي من الغرفة الى الصالون، حرصا على الأولاد، حسين الصغير وبثينة وأحمد. هل تحولت الى ذئب أجرد في صحراء الجزيرة؟ هل تحولت الى شبح انسان لم يعد يمتلك سوى الصمت؟ الصمت ومراقبة ما يجري حولي مثل جهاز لتخطيط القلب؟

كتب أخي سعيد في الجريدة التي يعمل فيها عن الحامضية بروح عذبة. كان يعتبر الكتابة عن تجربته الفنية واجبا وطنيا، تستفيد منه الأجيال القادمة. تلك تجارب لا تحدث كثيرا في العالم. لذلك كما يقول من المهم تدوينها. كتب: البلدة التي بدأت تنتمي الى الحضارة. لم استطع معرفتها في اول يوم رجعت فيه الى حضنها. تغير

كل شيء فيها حتى وجوه الأشخاص الذين عرفتهم في شبابي. ازدادت بيوتها، وكثر قاطنوها وتحولت من قرية مهملة الى بلدة تعرف الانترنيت والموبايل والصحون اللاقطة. هل هذه هي الحامضية التي غادرتها؟ هكذا أنهى مقالته متسائلا. لقد تغيرت الحامضية حقا، لكننا دفعنا ثمنا باهضا لذلك التغيير. وهذا حالي أنا. لكن على أية حال، سأصبر على ما جرى لي. سأحتمل. وأريد أن أرى النهاية، كما قال أبي ذات يوم. لا أريد أن أتسبب لهم بأزمة نفسية. أدرك ما أمر به من شقاء وفوضى وخوف. قال لي دكتور ذاكر، ابن خالي، إنها حالة مؤقتة وستزول قليلا قليلا في المستقبل. منذ خروجك من المستشفى وانت في تحسن تصاعدي. أصبحت واحدا من الجرحى الراقدين في بيت أحمد الأعرج. صرت بحالة جريح، وليس مشرفا على الموت.

كان أسبوعا رهيبا لي. وقتها كنت أفيق على الأنين، وأنام على صوت النواح. حتى قلت للدكتور ذاكر ولمياء وعلي أخي، أرجوكم أرجعوني الى البيت. لا أريد البقاء في سرداب الدم هذا. رائحة الشاش والدواء والأمصال والحبوب المنومة، كانت تجلب التعاسة الى صدري. هل أراد الدكتور ذاكر طمأنتي، أم أن حالتي ستشفى بالتأكيد؟ كثيرا ما أفكر بهذا، ولكن الأعمار بيد الله. لقد نفذت من ذلك الإنفجار الرهيب بأعجوبة، وهذا يعني أنني لن اموت قريبا. كيف أموت وقد خرجت توا من براثن الموت؟ براثن الموت التي حملت أبي وعمي وابن أخي. عمي اسمه حسن، وابن أخي الصغير كمال اسمه حسن أيضا. حسن كان في صف ابني أحمد. كانا صديقين. يذهبان كل يوم الى مدرسة المعرفة الواقعة على طرف

البلدة. لم يصدق أحمد أن حسن قد قتل في ذلك الانفجار الرهيب الذي دمر بيت عمي حسن. بعد الحادث كان يذهب الى بين كمال ليأخذه الى المدرسة. يقول له عمه كمال، إن حسن لن يذهب الى المدرسة مرة أخرى. ويبدأ بالبكاء. كل صباح. كل صباح. الى ان اقنعنا احمد ان حسن مات. وعليه أن لا يذهب الى بيته في الصباح. لكنه ينسى الحقيقة بعض الأيام ويقف في مدخل البيت، يصيح عليه، حسن حسن تأخرنا على المدرسة. أحمد وحسن في الصف الخامس الابتدائي، وبثينة في الأول، وحسين لا يتجاوز عمره الثلاث سنوات والنصف.

بدأ حسين ينظر الي أحيانا بخوف، وذلك بعد أن رأى حالتي، وكيف أتصرف. إبني صار يخاف مني. أظن أن زوجتي لمياء تخاف مني كذلك. اعتقد أن الجميع يخشى أن أصاب بالجنون لاحقا. البيت كله يخاف من الجنون. فالجنون لا علاج له. يوما بعد يوم يصبح المجنون عبئا على عائلته. قصص المجانين كثيرة في الحامضية. مات آخر مجنون قبل الحرب بشهور. كان اسمه عناد. عادة ما يهيم في الليالي بين الدروب دون هدف. اليوم لو بقي حيا لا بد ان يقتل من قبل كمين اميركي. فهم يصنعون الكمائن قرب النهر، وعلى مشارف بساتين النخيل، وبين السواقي الموغلة في الحلفاء والبرسيم. هذا الزمن ليس زمن المجانين. فأقل هفوة يمكن ان تقود صاحبها الى الموت.

لست مجنونا. رغم هذا الشواش الذي في رأسي. أجبرني كمال أن أذهب الى طبيب في بغداد اسمه الدكتور مجيد ليجري مخططا لدماغي. مرات أتخيل أن شظية صغيرة تسكن في مكان ما منه.

تتحرك هناك مهتزة كلما تناهى الى حواسي ازيز الطائرة الذبابة. يبدو أن معادنهم تتواصل بعضها مع بعض. غير ان المخطط لم يثبت وجود اي شظية. هل هي شظية نفسية يا ترى؟ اخي سعيد سيحب هذا المصطلح. قد يدخله في احد اعمدته الصحافية في الجريدة. اعجبني مصطلح شظية نفسية كثيرا.

- محمد أفق. نادت أمي وهي تقف في مدخل الصالون. الشمس ارتفعت في السماء وأنت نائم.

- اجلبي لي الفطور.

- بعد الفطور إذهب الى أخيك كمال وواسه. إنه يقف في الحديقة يبكي.

الحياة تسير في البلدة. يبدو أن الحياة لا تتوقف حتى بوجود هذه الفوضى. مزامير سيارات. حركة اطارات على الشارع. ثغاء اغنام. نباح كلاب. وشدو عصافيرنا القاطنة بين سعف النخيل في الحديقة. العصافير دائما هناك. حتى في اثناء جنازة ابي، والشهداء الآخرين، ظلت العصافير تشدو في السعف.

العصافير لا احزان لديها. الأحزان مخلوقة للبشر على ما يبدو. الأموات في المقبرة والأحزان في صدورنا. كنت ارى أمي تبكي مساء تحت النخلة الفارعة. والعصافير فوقها لا تكف عن المرح.

غيرت أمي اليوم من فطورها، ووضعت لي تمرا من النوع الخستاوي مقليا بالزبدة مع صحن اللبن اليومي، ورغيف خبز ساخن. امي هي التي تعد الفطور عادة. وكانت تشارك أبي فطوره في ذات البقعة التي انام فيها. الفطور وضعته لمياء أمامي وانسحبت الى الداخل.

قالت انها ستطعم الأولاد، وشعرت انني أصبح عبئا عليها بمرور الوقت، رغم أنها لم تصرح بهذا. لمياء قصيرة القامة، لكنني أحببت فيها عينيها الزرقاوين، وهي من مدينة الرطبة. أول ما رأيتها في بيت أحد أقربائنا في الرمادي عشقتها. لست نادما على زواجي منها، مع أن أمي تصفها بالإبريق، حين تتندر على قصرها. وأمي ليست بالطويلة. فهي لا تصل سوى الى صدر المرحوم أبي، لكنه ظل، وطوال حياته التي انتهت في الثامنة والسبعين، يعشقها. إنها إبنة عمه. تزوجها وهي لم تبلغ الرابعة عشرة من العمر.

تركت بثينة أمها في المطبخ وجاءت لتفطر معي. حسين نائم هو وأحمد. سألتها لماذا لم تذهب الى المدرسة اليوم. قالت إن المجاهدين منعوهم. ولمست ارتياحا لديها من عدم الذهاب الى المدرسة. أغلب الاطفال يكرهون المدرسة. هكذا كنا نحن في زماننا. نفرح لأي انقلاب يحدث في بغداد، أو عيد، أو ذكرى تكون ذريعة لنا كي نبقى في البيت. البشر لا يتغيرون. الكسل ممتع. افهم الآن لماذا يتقاتل البشر على وسائل الراحة. منذ صغري كنت أكره العمل. أحب التبطر والعطالة وتدخين السجائر. لا اعرف من الذي قال ان العمل متعة؟ لا اجد في العمل أية متعة. لولا أنني اصبحت رجل البيت، بعد مقتل ابي، لقلت انني مرتاح لحالتي هذه. ليس حالة المرض بل حالة الكسل والبطالة. هذا رغم انني ادرك ان الحياة لا تستمر بالبطالة بل بالعمل. تلك بديهيات معروفة.

بثينة لا تحب المدرسة. مثلنا قبل عشرات السنين.

كانت مدرسة المعرفة اشبه بيعبع لنا. تلاميذ تلك الحقبة. التلاميذ المليئون بالقمل، الذاهبون الى المدرسة على الحمير والبغال. في الطرق الموحلة. في برد الشتاء وحر الصيف. أيام كنا نبيع الورود لكي نشتري دفاتر وأقلام. وكانت مدرسة المعرفة تقع في مكان آخر. قرب بيت حماد العيد المحاذي للمستنقع الكبير، حيث صحراء الجزيرة تنفتح على المجهول. قبل عشر سنوات، وبعد أن مات حماد العيد القائم على خدمتها نقلتها مديرية التربية الى الجهة الغربية من البلدة. بناؤها اليوم من الطابوق والاسمنت، عكس المعرفة القديمة التي كانت من الطين. تتغير الأماكن وتظل الأسماء في الذاكرة. يصعب جدا الخلاص من الذاكرة. بثينة لا تدرك معنى الذاكرة. اعتقد أن خير من يدرك معنى الذاكرة هو أخي سعيد.

قال لنا ذات صباح، وكنا جلوسا في صالوننا هذا، وأبي يستمع بأناة اليه، انه عاش على خزين الذاكرة اثنين وعشرين سنة وثلاثة اشهر وستة ايام. حسبها حتى في الايام والساعات. حين نفقد الشيء يتحول الى ذكرى. وربما تصبح الذكرى تلك كابوسا، او حقلا نديا من الورود. لم يقل انه قبل تربة الوطن في الحدود كما نقرأ في الجرائد والروايات. ولم يذرف دموعا ايضا. فقط أحس انه يعود الى البيت. دون خسائر ضخمة. ما معنى الخسائر الضخمة؟ هذا السؤال أرقني طويلا بعد عودة سعيد. وذات يوم تجرأت وسألت سعيدا عن قصده بالخسائر الضخمة. جوابه لم يكن مقنعا. قال انها خسائر لا يمكن وضعها بتوصيف. تعاش فقط. لكنها لا تسمى. طبعا لم افهم القصد من وراء كلماته. يبدو أن الشخص حين يغترب طويلا عن

مكانه يصبح من طينة أخرى. ربما لهذا لم يكن أخي سعيد مفوهما لنا تماما.

- بابا أنت لن تموت اليس كذلك؟ فاجأتني بثينة بهذا السؤال وهي تجلس قبالتي حول صينية الفطور.

- انا يا بثينة حتى الصاروخ لم يمتني، فكيف أموت بعد أن نجوت من الإنفجار؟

- بابا اشتقنا الى حسن.

- حسن فقط؟

- كلا، حسن ونور وجدي وعمي حسن ومها وأنور الصغير. هم في الجنة اليس كذلك؟

- اكيد يا بثينة، لقد ماتوا في آخر يوم من رمضان، يوم الخميس. قتلوا دون ذنب لذلك هم في الجنة الآن.

- بابا ما هي الجنة؟

- الجنة حسب القرآن أنهار من عسل وخمر وحدائق، وليس فيها صواريخ وانفجارات وقنابل مضيئة وبرد مثل الآن. والبشر فيها لا تموت.

- هل أذهب أنا الى الجنة حين أموت؟

- اذا مت بصاروخ اميركي ستذهبين الى الجنة حتما.

- كلا لا أريد أن أموت بصاروخ أميركي. اريد أن أعيش حتى أبلغ عمر جدتي. بابا قالت عمتي نجاة أنها في الليلة الفائتة سمعت صوت أنور الصغير قادما من خرائب البيت. قالت إنه حي بالتأكيد، كيف يرجع الى البيت وقد دفنوه في المقبرة؟

الانفجار الأول أوقع اللقمة من يدي. اهتز البيت بعنف. هربت بثينة الى أمها. وتدحرجت أنا تحت الأريكة كي لا تصيبني أية شظايا. لا شظايا نفسية ولا مادية. ثم أعقب ذلك انفجار ثان. إنه هاون. هاون قريب. لا بد أنهم يطلقونه من فناء الجامع على القاعدة الأميركية القريبة من جسر الرمادي. كتمت أنفاسي. وحبست جسدي تحت الأريكة. أنتظر الرد بخوف. أخشى أن يخطئ ردهم فتقع القذيفة على بيتنا. بيننا وبين الجامع مئتا متر. وربما أقل. قبل أسبوعين قتلوا امرأة وثلاث بقرات خلال الرد على هاونات وصواريخ المجاهدين في أطراف الحامضية. المجاهدون اطلقوا صاروخين او قذيفتي هاون، لا اعرف بالضبط. اطلقوها من قرب بيت عبدالله الناجي وهربوا بسرعة. لم يتأخر الرد. قال عبدالله الناجي للمجاهدين يا أخوتي اذا أردتم ضرب الأميركان فاضربوهم بعيدا عني. انظروا ماذا فعلتم بي. قالوا له اسكت والا قتلناك، كل شيء فداء للجهاد والمجاهدين. حتى لو استعرنا امرأتك فلا تعترض. هذا المنطق مع رشاش في اليد يصعب الحوار معه.

في زوايا الغرف. اختبئوا. سمعت أمي تصيح على الأولاد. الغريب أن أمي أصبحت خبيرة بطرق الاحتماء من الانفجارات. هل يعيق الشظية سقف أريكة من الخشب؟ فكرت مع نفسي وأنا اختبئ تحت الاريكة. متى نتخلص من الانفجارات؟ هذا هو السؤال. تعبنا من الانفجارات مهما يكن مصدرها.

في الحقيقة نحن واقعون بين المطرقة والسندان. الحكومة غائبة. لا نراها سوى في التلفزيون. هناك في بغداد. أما نحن فلا نعرف أين

نولي وجوهنا. انفاسي تتردد تحت الأريكة. ضوء الشمس ينـدلق في الفضاء. الغبار يلعب في الفسحة بين الأريكة وفروة ابي. اشم عفن الشتاء في انفي. ضوضاء بعيدة وهمسات ونداءات من بيوت الجيران. دوى الرد سريعا، واهتز البيت من أركانه. خفت أن يتحول الى ركام مثل بين عمي حسن. التكنولوجيا تخطئ أيضا. قذفوا قذيفتين، وأعتقد انهما وقعتا قريبا من الجامع أو ربما عليه. سمعت صوت تكسر الزجاج في مطبخنا. هبدة غامضة. لم يخطئوا هـذه المرة. تكسرت دون شك شبابيك بيتنا المواجهة للجامع. دخل كمال الى البيت خوف الشظايا، لأنني لم أعد أسمع صوت نواحه على إبنه حسن. في القصف يجب الاختباء. حتى لو كان المكان المقصوف بعيدا. تصل الشظايا الى مديات غير متوقعة.

أمـي أسمعها أحيانا في الليل تبكي على أبي وعلى حسن حفيدها. اسمعها في حديقة بيتنا. الكل يبكون هنا. دائما هناك موت. دائما هناك فراق لشخص عزيز. لم اعد أتذكر الزمن الذي كنا نعيش فيه بسلام. ولى زمن نهر الفرات. وغابت الليالي القمرية التي كنا لا ننام فيها الا بعد أن يصيح الديك. ما الذي حدث لهذه البلدة كي تجن هكذا؟ حين نظر سعيد الى القبور في المقبرة، بعد عودته قال بحزن: كل هؤلاء ماتوا أثناء غيابي؟ من خمسين قبر فقط ماتوا قبل رحيله الى مقبرة مترامية يختلط في أديمها الشباب مع الشيوخ. في المقبرة القديمة رقد ثلاثة شبان فقط. احدهما قتل خطأ بسبب بندقية نسيبه، والثانية مدانة التي قتلها زوجها بسبب أحمد الأعرج، والثالث احسان الذي مات غرقا في الفرات بعد ان ارتطم رأسه بقاع النهر.

الجميع صار يبكي هنا في البلدة. قال سعيد ذات مرة ان الدموع اصبحت كثيرة في الحامضية. هل الدموع سلاح العاجزين؟ هذا هو السؤال.

خذوا مثلا ابن عمي قيس. كيف لا يبكي؟ مات له ثلاثة أبناء وأب وإبنة أخ. اي خمسة من العائلة. أبي كبير السن، بلغ الثمانين تقريبا، لذلك فموته سياتي قريبا بالتاكيد. عمي حسن أيضا. راى ما يكفي في حياته، عاشر نساء، وجلب نقودا لا تحصى، وأنشأ قصرا جميلا وباذخا، وحج بيت الله، ثم رحل سوية مع أبي. عمي بلغ السبعين. لكن الأطفال، حسن ونور ومها وأنور لماذا يغادروننا بهذه السرعة؟ مشكلة أخي كمال مشكلة. منذ أن قتل حسن بذلك الإنفجار وهو يبكي. في الليل يبكي. في الصباح ينوح. في الغروب يمسك سعفة نخلته الصغيرة ويخاطبها نائحا: لقد مات حسن أيتها النخلة. هو الذي جلبك من أمك وشتلك وسقاك، انظري اليوم إنه تحت التراب. في المقبرة. بالكاد تجاوز العشر سنوات وهو تحت التراب. أيجوز ذلك؟ وهكذا... يتحدث مع نفسه ويبكي.

قلت له يا أخي كمال، أنت رجل عاقل، ،متعلم، وما قدّره الله يجب أن نرضى به. الظروف أكبر منا جميعا. فقدنا التاثير فيها. قال لي إنه يشعر بالألم الكبير لأنه كان أحيانا يضربه بالحزام، وعلى اقل هفوة. يحس أنه هو الذي قتله. ثم يعاود البكاء من جديد. الحمد لله انني لم افقد احدا من أبنائي. لمياء حين حدثت الضربة ربطت أحمد، وهو إبني الكبير، بحبل لكي لا يذهب الى بيت عمي حسن. لو ذهب الى هناك لكان مصيره مصير حسن بالتأكيد. الحياة أقدار

ومصادفات. صارت كلمة القدر تتردد مليون مرة يوميا في البلدة. الجميع يعتقد ان ما يجري لهم قدر مكتوب من السماء. والانسان لا يمكنه ان يغير المكتوب.

الهدوء يخيم من جديد. أسمع خوار بقرة خالي، خلف السياج، وصياح ديك في بيت الدكتور ذاكر ابن خالي. كما أسمع صوت سيارات مارقة في الطريق العام للبلدة. لقد عادت الحياة الى طبيعتها. رحل المجاهدون واستكن الأميركان في قواعدهم، وخرج الناس الى مصالحهم. وهكذا زحفت مثل بزاقة من تحت الأريكة. ونهضت واقفا وسط الصالون. الشمس تتدفق من خلال الستائر. والعصافير عاودت غناءها في نخيلنا السامق المنتصب في الحديقة. فصل آخر ينتهي من الحكاية. والحكاية تتكرر كل يوم. علينا الآن أن نعد الضحايا. الخسائر من جديد. والخسائر تجربة شخصية كما يقول أخي سعيد. لا أحد يفهم خسائرك أو يهتم بها. لا بد لي من مواجهة الحقيقة. مواجهة الحياة. لا بد لي من رؤية ما يدور في البلدة والبلد كله. لم يتغير شيء. هكذا قلت لنفسي وأنا أمشي ببطء، خارجا من الباب الرئيسي الذي يؤدي الى الحديقة. السماء صافية. الحمام يطير فوق النخيل وأشجار البرتقال. ويحلق عاليا باتجاه نهر الفرات، خلف بيت الشاعر ملا علي. سيارات حديثة من تلك التي وفدت الى البلاد تمرق في الطريق العام. ثمة بلل خفيف في الممشى الذي يقود الى التواليت. والتماعات مياه ناعسة تكشفها أشعة الشمس المسلطة على الثيل المقصوص. في النخلة القريبة من الممشى حطت عروس النخيل ملونة الريش. وراحت تدير رأسها ذات اليمين وذات الشمال.

خرجت نجاة، زوجة كمال، الى حديقة بيتهم لكي تشغل موتور الماء. كان حسن هو الذي يقوم بذلك عادة. اذ كان خادم البيت. هكذا كنا نسميه. ويعترض سعيد عمه ليقول كلا انه شمعة البيت. هذه هي الخسائر الخفية ربما التي تحدث عنها سعيد. ان يفقد المرء غاليا. أو يبتعد عن مكان يحبه. أو يعيش في زمن لا يحبه.

برودة خفيفة في السماء الصافية. نخيل بيت عمي ازداد هطولا الى الأرض. سعفه حزين، ربما على رحيل عمي. عائلة عمي رحلت الى بغداد بعد أن هدم بيتهم. كمال يزورهم كل أسبوع تقريبا. ينقل لهم أخبار البلدة بتفاصيلها. وهناك يلتقي بأخي سعيد الذي عاد الى الوطن. غاب عنا طويلا. افتقدناه. انقطعت عنا أخباره. لم يرقد في المقبرة لنزوره. ولا هو في سجن لكي نحاول اطلاق سراحه. قيل مات. وقيل اختفى مثل غجري من الزمن العتيق. كان ذلك أيام الحرب مع ايران. كنت صغيرا وقتها. أكبر من إبني أحمد بقليل حين اختفى سعيد. اليوم يشتغل في إحدى صحف العاصمة. لكن ذلك أصبح من التاريخ، وتحول الى حكايات نرويها في المساءات حين نجتمع سوية في بيت أخي كمال. كتب سعيد مقالة مطولة في الجريدة يصف فيها يوم وصوله الى البلدة. بعد أن قرأتها زاد فهمي لعالمه القديم. العالم المجهول لنا. اتذكر جملة لم تزل ترن في رأسي، كتب فيها: هل أنا الذي تغيرت أم الحامضية؟ أنا الذي عاش في مدن غريبة، وعاشر نساء، وسهر ليالي في الجبال، وركب قطارات، وتنقل بين بلدان وقارات، وتعلم لغات، أم الحامضية التي عاشت حروبا، ودفنت موتى، وربّت بناتا

وبنينا، وبنت بيوتا، وشقّت طرقا، وعاشت حصارا، وتناقلت قصصا وحكايات؟

التغير طال الجميع. هذا ما فات سعيد أن يذكره. ثبت لي أن سعيدا لم ينس الحامضية على الاطلاق. الحكمة من عودته كما قال لنا تلك الهوة المختبئة عميقا في احشائه. ثمة فراغ بحاجة الى ان يملأ. الوقت يمر. وتلك الهوة تتسع. كان عليه أن يردمها بتراب البلدة. بتلك القبور التي اقيمت بعده. بالنساء الشابات اللواتي ولدن بعد رحيله. بنخيل جديد. بأمواج نهرية طازجة. بنباتات وطيور وثمار وتعابير وجوه عانت، وكظمت ألمها. يملأ الهوة بقصص الناس الذين ماتوا او ولدوا. هوة ستملا لمرة واحدة، فهو لا يمتلك سوى عمر واحد فقط. لن يموت، كما قال، دون أن يملا الفجوة المفتوحة في جسده. وهكذا فعل. واستقبلته لمياء بابتسامتها التي احبها. وأبي بلحيته البيضاء مثل ثلج. وأمي بوجهها الهادئ. وعشرات الأطفال الذين ينادونه عمي أو خالي.

◆◆◆

لاحظت حركة مريبة في الجامع. عدد من الناس يجتمعون هناك. ثمة شيء غير مألوف. لابد أن القصف طال الجامع إذن. هذه هي المرة الثالثة التي يقصف فيها الجامع ردا على هاونات المجاهدين. رأيت أخي كمال يتجه الى هناك، فأومات له أن ينتظر. مشيت نحو بوابتنا الخارجية الراقدة تحت شجرة الكينا. تلك الشجرة التي زرعها أبي لكي تظلل البقرة صيفا، وتكون حطبا في الشتاء. استخدمنا ورقها أيضا لطرد البعوض، فهو يمتلك رائحة حادة. حين خرجت من البوابة وجدت كمال واقفا وعلى وجهه أمواج من الحزن. الضحك غادر

بشـرته فجـأة دون اسـتئذان. كـان كمـال يضـحكنا دائمـا بعبثـه وقفشـاته. عـادة مـا يحـول كـل قضية، حتـى لـو كانـت شـائكة أو قاسية، الى نكتة. حين قتل حسن تغير كثيرا وصار مزاجه سوداويا. انا أقدر حاله، لقد رحل عنه حسن. حسن الذي دفنوه في مقبرة القرية. لم اكن حاضرا حين دفنوا أبي وحسن وأنور ومها ونور والآخرين. لم يكـن سـعيد حاضـرا هـو الآخـر. كنـت ارقـد في مستشـفى الرمـادي الكبير، تستولي علي غيبوبة استمرت أكثر من يومين. كل من رآني ظن أنني ميت. اخبرني أكثر من شخص أن وجهي وراسي كانا اشبه بخريطـة مرسـومة بـدون حذاقـة. دم يختلط بغبـار، بفقاعـات هوائيـة، بإسمنت، بشظايا من الحديد، بالتماعات فوسـفورية، بهبـاب حريق. كـان وجهـي دون ملامـح حـين نقلـوني الى مستوصـف الحامضـية. تركـوني جانبـا باعتبـاري ميتـا، وراحـوا ينقـذون الجرحـى الأحيـاء، وصدفة جاء الدكتور ذاكر وجس نبضي وصاح بالمنقذين إن محمدا حي، لم تتركوه يموت؟. وهكذا نقلوني الى المستشفى. هذه الروايات سمعتها لاحقا بعد أن استعدت وعيي. كل زائر لـي كـان يـروي قصـة مختلفة عن الآخر. لكن الروايات كلها كانت تشير الى خروجي من براثن ذئب أو أسد، كما قالت زوجتي لمياء بالتحديد. وأضيف أنا مع نفسي كان ذئبا جائعا في ليلة دهماء كما يقال في الكتب.

الحامضية تغيرت كثيرا كمـا قـال اخـي سـعيد. طبعـا تغيـرت كثيرا، لأنه ابتعد عنها أكثر مـن عشـرين سـنة. لكـن الحقيقـة هـي أنها تغيرت فعلا. من كان يحلم يوما برؤية عشرات الصحون اللاقطة علـى اسـطح البيـوت؟ ومـن كـان يحلـم بوجـود محلـين للانترنيـت في

الحامضية؟ وهذا العدد من السيارات الحديثة من بلدان العالم كلها، وهذا التنوع في البضاعة الذي راح يغزو المحلات على الطريق الرئيسي؟ نعم ثمة تغيرات هائلة نراها أمامنا. قال ذاكر إنه يأمل بافتتاح مستشفى في الحامضية. وقال سعيد إنه يحلم بفتح مكتبة عامة، يضع فيها الروايات والشعر والقصص والكتب الخاصة بالتكنولوجيا الحديثة وسي ديات موسيقية لكبار الفنانين. وكان كمال يسمع هذه الأحلام وينطلق بضحكة مدوية. ضحكة ساخرة وكأنه يدرك عالم الوهم الذي يسبحان فيه.

أجل. انها أحلام فقط. لكن ما الذي نفعله من دون أحلام؟

ظل كمال صامتا ونحن نتجه الى الجامع. لا أسمع سوى انسحاق الحصى الذي فرش فيه الطريق القائد من بيتنا الى الجامع. الجامع الذي بناه أبي، وشاركت في رفع أحجاره، أنا وكمال وسعيد، قبل رحيله، وأخي الكبير علي، وعدد من شباب القرية الذين أصبحوا اليوم كهولا. بناه أبي قبل ثلاثين سنة بالتحديد. ورفض أن يتوظف فيه، لأنه يعمل لوجه الله كما كان يردد دائما، وليس بحاجة الى وظيفة في جامع بناه بيده، وجمع له النقود من خلال سمعته الطيبة بين الناس. طوال عشر سنوات تقريبا ظل جامع عبدالله بن الزبير، وهو الإسم الذي اختاره ابي للجامع، هو الجامع الوحيد في القرى والبلدات الواقعة على الفرات بين الرمادي والفلوجة. وبوجود المستوصف والمدرسة والجامع والمحلات الجديدة، تحولت الحامضية من قرية الى بلدة.

لقد ضرب الجامع، كما وجدناه، بقنابل غريبة. كانت من النوع الذي ينفلق في الجو قبل اصطدامه بالأرض. قال أحد الشباب إنهم ضربوه من القاعدة القريبة من الجسر. أي من بيت الرئيس. بيته سابقا حين كان حاكم السماء والأرض قبل ان يجدوه في حفرته الشهيرة. لكن ما هذه الدقة يا أولاد الحرام؟ تساءل الشاب ونحن نقف نتفرج على آثار القصف للجامع. تتكنولوجيا أخي، تكنولوجيا. هذا عالم يشتغل بالعقل. قال شاب آخر يقف جنبنا. يضربون الجوامع هؤلاء الكفرة. تخيل هؤلاء اليهود والنصارى لا يحترمون حتى بيوت العبادة. قال شاب يقف قريبا من صالة التأبين التي انشأناها لكي نؤبن فيها أموات البلدة. كانت آثار القصف واضحة على هيكل الجامع. بلور أغلب الشبابيك، التي حرص أبي على أن تكون ملونة، تكسرت بفعل الإنفجار. الشظايا المتطايرة من القذيفة تركت آثارها على المئذنة الصغيرة التي لا تعلو سوى أربعة أمتار من الطريق العام المرتفع. وثمة شظية وحيدة ضربت خزان الماء المركون على السطح. فبدأ الماء يتدفق من ثقب كبير ليتسرب نحو الجدران. أما داخل الجامع فوجدناه سليما سوى من شظايا الزجاج المبعثرة على السجاد. لاحظت بعض الوجوه التي لا أعرفها في البلدة تراقب كل كلمة نقولها. وجوه أطلقت لحى خفيفة وذات نظرات صارمة غير عابئة بما يجري.

قلت لكمال من هؤلاء؟ قال اعتقد أنهم من المجاهدين، يريدون ان يسمعوا ما يتقول به الناس. يريدون معرفة نبض أهل البلدة. لاحظت

أيضا وجوها غريبة ربما كانت قادمة من بلدان أخرى. كانوا يرتدون دشاديش بيض مثل التي يرتديها أهل البلدة. السحنة وحدها تختلف.

ثمة أقاويل كثيرة راحت تتردد في الحامضية عن مجاهدين قدموا من السعودية وسورية والمغرب وباكستان وافغانستان وفلسطين. الحامضية أصبحت بلدة عالمية. أخبرنا أخي سعيد أنه كتب كثيرا عن البلدة. وحدث أصدقاءه عن تاريخها وقصصها وأساطيرها. في أكثر من بلد حملها في قلبه مثل حلم بعيد. وراح يستعيدها أمام اصدقائه في مدن مختلفة، على هيئة شخصيات غريبة، ومجانين، وعميان، ومأبونين، وفيضانات أحدثها الفرات، وافكار ساذجة، ونساء كن مشهورات بجمالهن في كل الضفاف. ربما أصبحت مشهورة بسببه. لكن أخي سعيد شيوعي وليس مجاهدا. على أية حال هناك قصص كثيرة بدأنا نسمعها في هذه البلدة المسكينة.

- هؤلاء هم الذين تسببوا بقتل ابني حسن.

- من تقصد؟

- من يسمون بالمجاهدين.

- يا رجل اتق الله، انهم الأميركان.

- عملوها بقصد. فما دخل بيت عمي حسن بالجهاد؟

- كان ينبغي عليهم التأكد من مصدر النار.

- كان عليهم ان يقدروا ردة الفعل.

- كان على الأميركان أن يقدروا الأمر بروية. إنهم نزقون. لا يهمهم ما يسببونه من مآس.

- لماذا أطلقوا عليهم النار من سياج عمي؟ الا يدركون انهم سيردون على مصادر النيران؟ مقصودة. يعرفون اننا محايدون في ما يجري من أحداث فأرادوا توريطنا. يدركون جيدا أننا فرحنا باسقاط النظام، ولم نكن بعثيين يوما، وأرادوا الإنتقام منا.

منارة الجامع الصغيرة عليها آثار شظايا. في الجو رائحة بارود. في الجو رائحة شواء. التكنولوجيا الحديثة لا ترى لكنها تترك آثارها على الأجساد. مثل حالتي. ما الذي يقوله أبي ترى لو رأى ما آل اليه الجامع، الجامع الذي بناه، وجمع له النقود، وسماه بجامع الزبير؟ كان أبي يأخذنا انا وعلي وكمال وسعيد لحفر الأسس ونقل الحجر من مكان الى آخر، وتنظيف الرمل وتجهيز الاسمنت. في تلك الأيام لم تزل غابة النخيل جوار الجامع. وكانت بلدة الحامضية تختلف عنها اليوم. لم تكن سوى عدد محدود من البيوت المبعثرة بين غابات النخيل. وكانت تعيش على عتمة الليل. وتتسلى بالحكايات والقصص. وتنام باكرا، اذ لا يوجد فيها كهرباء. ولم يدخلها التلفزيون بعد. وكان الراديو هو الخيط الوحيد الذي يصل أهل القرية بالعالم، إضافة الى باص من الخشب، يسافر الى مدينة الرمادي صباحا، ويعود مساء. حول أخي سعيد ذلك الباص الى نكتة في مدن بعيدة. وكان الباص فعلا نكتة كما وعيته أنا. تهرأت أخشابه وتآكلت أعضاؤه وتقشر دهانه وتحول في أخريات أيامه الى حمار. أصبح صاحبه الملا ابراهيم ينقل به الحشيش الى البقر بدلا من حمير البلدة. اضافة الى ذلك كان مساعد السائق أعمى. جاءنا ذات يوم متذمرا من السائق لأنه لا يدعه يتعلم السياقة ويحسن مستقبله.

كنا نقف أنا وكمال على الطريق المرتفع. ثمة شباب في باحة الجامع يقفون قرب صالة التعازي التي بناها أهل البلدة لاحقا لكي تكون مكانا للإجتماع. قال كمال وهو يشير الى المجاهدين: جاءوا يتفقدون الجامع. لقد حولوه الى مكان للاجتماعات. رأيتهم ليلة القصف يخزنون أسلحة في صالة الوضوء، ويغيبون في الداخل، بعد أن أغلقوا البوابة الخارجية. على ما يبدو كانوا يرتبون الهجوم على القوات الأميركية في الجامع.

من هناك جاءت الطائرة المحترقة. قال كمال وهو يشير الى الفرات، والقرى النائمة بين النخيل في الشاطئ الثاني. قرى تبين من هنا ببيوتها الفخمة، الدبل فاليوم، الشبيه ببيت عمي مثل قصور أوربية كالتي نراها في الأفلام. شاع هذا النمط الفخم من البيوت في فترة التسعينيات بين ضباط الجيش، والمقاولين، والحزبيين الكبار. عمي لم يكن حزبيا. ولا ضابطا. كان مقاولا. ويملك أربع حفارات. كان يشغلها في المشاريع الحكومية في الجنوب. بنى بيته من نهر القائد، النهر الذي أريد منه تجفيف الأهوار في الناصرية والعمارة. وكانت حفاراته تشتغل ليلا نهارا. كان يجلب الدنانير بالأكياس الخيشية. في ذلك الزمن البعيد الذي كانوا يطبعون دنانير من الورق دون تغطية فتتهالك عليها البشر. دنانير من ورق.

هناك قرب النهر بستان حتوش. إنه قريب بعيد لنا، ويقطن في الضفة الثانية. بستان كثيف من التفاح والمشمش والبرتقال والنخيل. قيل إنه تحول أيضا الى مخزن للسلاح. قبل أشهر كانوا يطلقون الهاونات من وسط البستان نحو قاعدة الرمادي. الرد عادة ما يكون

سريعا، مما قاد الى خراب جزء من بستان حتوش. الجهات كلها ملغومة بالأسلحة ومخازن العتاد والعبوات الناسفة. صار من الصعب علينا الذهاب الى حقولنا المحاذية للفرات. خلال سنة واحدة تغير كل شيء. مثلما تحول بستان حتوش من جنة الى حقل ألغام. انه يشبه البلد تماما.

جاء حتوش ذات غروب عبر القارب، ووجدهم ينصبون صاروخا لإطلاقه نحو القاعدة. قال لهم يا أخوان أنتم تطلقون الصاروخ وربما يقع على القاعدة الأميركية أو لا يقع. ومن ثم يردون عليكم بالمدفعية البعيدة. ويحرقون نصف بستاني. وأنا أعيش عليه. لم لا ترحلون الى مكان آخر؟ رد عليه رجل ذو سحنة مغاربية، ولهجة بالكاد مفهومة: ارحل أو أقتلك الآن؟ رد عليه نفس الرد الذي ووجه به عبدالله الناجي: حتى لو أخذنا امرأتك لا ينبغي لك أن تعترض. إنه الجهاد. نحن نقاتل بدلا عنكم. جئنا من بعد آلاف الأميال لمقاتلة الكفار، وأنت تهتم ببستانك يا شيخ النحس؟ فما كان من حتوش الا أن استعاذ بالشيطان الرجيم، وعاد الى قاربه. جدف نحو الضفة الثانية وهو ممتلئ رعبا. لم يعد أحد يحترم الشيخوخة. نحن في آخر الزمان كما قال لاحقا. لم تمر سوى دقائق حتى سمع انفجار الصاروخ المرعب الذي هز الضفاف، وهيج طيور الحمام والغربان فاتجهت الى السماء الغائمة.

بستان حتوش كان لنا أشبه بالملاذ. حتى سعيد يحب الذهاب الى هناك معنا للسباحة. بالاحرى كان هو من أعاد الينا سنوات الصبا والشباب. هو الذي قادنا الى الفرات بعد اسبوع من وصوله. قال انها لحظة تاريخية في حياتي. قال انه فقد الأمل كلية في السباحة مرة

أخرى بأمواج الفرات كما اعتاد على ذلك طوال خمس وعشرين سنة قبل رحيله. حدثنا عن أمواجه التي تصب في صدره، وعن سمكه المتقافز في ذاكرته، وحشائشه التي طالما شم رائحتها على بعد آلاف الأميال. النفل والسعد والعروق المبتلة بالماء.

كان كمال يتكلم معي في أمر ما. أرى شفتيه تتحركان. عيناه تشيران الى الحقول البعيدة، ويداه تؤشران الى السماء. انه يتكلم عن الطائرة المحترقة. الطائرة التي سببت كل هذا العذاب له، وأخذت منه حسن. كما أخذت ابي وعمي وأحفاده وعددا من شباب القرية. إنني أتذكر دائما نور وحسن أكثر من الآخرين. نور الجميلة بعينيها الزرقاوين مثل مياه الفرات في الصيف.

في الحقول البعيدة أبقار ترعى بصمت. وفلاحون يعملون في الأرض. إنهم يعدونها لموسم القمح والشعير. سيارات تمرق بسرعة. وعن يميننا سوق البلدة. السوق التي نمت وترعرعت منذ سنتين لا أكثر. سيارات وشباب وبضائع كانت قبل عشر سنوات لا يراها المرء حتى في المنام. كومبيوترات وتلفونات موبايل وأدوات كهربائية وبضاعة سورية وأردنية وتركية وأميركية. لكنني لم أر بضاعة اسرائلية كما قالت إحدى القنوات الفضائية ليلة أمس.

جلسنا على كرسيين جنب محل عماد، وطلب كمال علبة دخان كلواس أحمر لي. كمال لا يدخن. واشترى أيضا علبتي كوكا كولا. في المحل الثاني وهو محل للسيديات، افتتحه ابن عماد حديثا كان ثمة أغان جهادية تمتدح معارك الفلوجة الأخيرة. إنه يعرضها على شاشة صغيرة في الداخل. أستطيع أن أرى ذلك من

تكدس الأطفال والشباب في فتحة الدكان. إنهم ينظرون الى الشاشة. همرات تفجر، جنود يقنصون من أماكن مجهولة. دفوف حماسية وأغان يختلط فيها الدين مع الكلمات الحماسية التي تدعو الى الانخراط في الجهاد. صار عمري أكثر من ثلاثين سنة وما زلت أسمع ذات الأغاني التي تشجع على القتل والهجوم والبطولة والنخوة وذبح العدو. بالأمس كانت عن الرئيس والحرب مع ايران، واليوم عن الحرب على الأميركان.

متى ننتهي من الحروب؟

ما استوقفني هو أن صوت المنشد ليس صوتا عراقيا. هذا سي دي جديد وزعه المجاهدون ليلة أمس، أخبرنا عماد بلحيته البيضاء وأسنانه المهدمة. عماد من جيل أخي سعيد لكنه يبدو بعمر أكثر بكثير. قضى عشر سنوات في الحرب على الجبهات، عدا الاحتياط. وجرح مرتين في معارك الفاو والنفط خانة، وكاد يحترق في طريق الكويت البصرة. يبدو انه لم يسر بسقوط صدام وحزبه. كان حزبيا هو الآخر، وكتب تقارير عدة عن أخي سعيد. وعن أخي كمال حين اشترى الصحن اللاقط، وكاد يقوده الى الإعدام لولا معارف أبي. لكن ذلك أصبح من الماضي. حتى سعيد حين عاد بعد عشرين سنة من الغياب لم ينبش الماضي. ولم يهتم كثيرا لهذه الأمور. نحن نعيش في عالم آخر كما قال لنا أثناء استقباله للمهنئين الذي جاءوا للسلام عليه. ما مضى قد مضى قال للجموع الجالسة في حديقة بيتنا، وكان أبي ينظر اليه باعجاب، غير مصدق عودته. ظنناه مات منذ سنين. انقطعت أخباره عنا منذ أن رحل الى الخارج.

في الجامع حركة غير عادية. سيارات خاصة تدخل الى الباحة وتخرج. أشخاص ملتحون، يجلبون كارتونات الى الباحة. حماسة. سألت عماد عما يجري، فقال إنهم يصورون الأضرار التي الحقها القصف الأميركي في الجامع. سيوصلونه الى المحطات الفضائية. هناك محطات تشتري هكذا أفلام بآلاف الدولارات. لم اشأ القول إن المجاهدين ينبغي عليهم أن يحترموا الجامع. ولا يحولونه الى مكان لإطلاق الهاونات، وخزن السلاح، والاجتماعات. سكت خوفاً. كلمات من هذا النوع تضع على الشخص علامات استفهام. خاصة وأنا قد ذقت الضرب المبرح منهم تلك الليلة. نحن بين المطرقة والسندان. اخبرنا شاب واقف قربنا أن احد المجاهدين جلب قرآنا من الخزانة ومزقه ثم جرح اصبعه وراح يرش الدماء على القرآن. وجلب الكاميرا ليصور المشهد. هذه مشاهد كاذبة. تعبوية. أكيد ان هناك الملايين سيصدقون هذه اللقطة. السذاجة تربح دائما. الضجيج في راسي يتصاعد. تلك الشظية المعنوية تجاهد لكي تتوغل في دمي. شظية مجاهدة. قال كمال، ونحن راجعون الى البيت، إنهم سيذهبون الى المقبرة. لم يحدد الوقت. الأمر يعتمد على مجيء سعيد من بغداد. فهو لم ير قبور الضحايا، قال لكمال لابد له من زيارة قبر أبي وقراءة الفاتحة. فهو لم يكن حاضرا في الدفن.

أعرف أن كمال متشوق لرؤية قبر حسن إبنه. الذهاب الى هناك فيه خطورة رغم انه لا يبعد كثيرا عن البلدة. فهناك نقطة اميركية تتموضع فوق أحد الجسور القريبة، الواقعة على الطريق السريع. دفنوهم دون أن أشارك أنا. كنت في المستشفى. أخبروني بعد

أسبوع بما حصل. أخبروني عن الكارثة بالتقسيط. كوارثنا أصبحت تحل علينا بالتقسيط. وأحيانا تقع دفعة واحدة. كانوا خائفين علي من المفاجأة. ولكنني حين دخلت بيت أحمد الأعرج وشاهدت كل أولئك الجرحى هانت علي مصيبتي. خالتي وأختي شكرية ومحمد بن خالي ذياب وزوجة الدكتور ذاكر وغيرهم الكثير، من النساء والرجال والصبيان. توزعتهم الغرف والصالون في بيت أحمد العبد ، الذي عرف في القرية باسم أحمد الأعرج. عن يميني يقوم بيت حسيبة. أمامه الحديقة المزروعة بالتين والرمانت والنارنج. لا تبعد سوى أمتار عن الجامع والطريق العام. الضربة أخذت منها ولدها. شاهدت حسيبة تجلس تحت التينة داخل سياج بيتهم. خمنت انها تبكي ابنها الذي قتل. رغم شللها النصفي الا انها لا تريد لأحد أن يرى دموعها. ثلاثين سنة وهي تنود على ماكنة الخياطة. ثلاثون سنة ورجلاها تترجرجان على دواسة الحركة الى أن اصابتها بالشلل. دموعها الآن تسقي التينة التي تجلس تحتها.

وسنأكل بعد شهور تينا معبأ بالدموع. لكن ذلك سيحدث في الصيف. فالوقت ليس وقت نضوج التين.

◆◆◆

أسمع أزيز الطيران الليلي فيداخلني الرعب. رأسي يتماوج بالغبار والانفجارات. أحس كما لو أنني أجلس على تنور أمي الملتهب. أجلس الى التلفزيون في الصالون. أشاهد أخبار ما يجري في البلد. البلد يحترق. دخلت خلال سنتين فقط عشرات الفضائيات الى بيوتنا. منها عراقية ومنها عربية. دخل ايضا قمر الهوت بيرد الذي يعرض أفلاما

جنسية. ربما لهذا روّج المجاهدون في البلدة أنهم سيمنعون الصحون اللاقطة لكي يحصنوا بيوتنا من الفساد الصليبي الغربي. سمعنا أن طالبان في أفغانستان منعت حتى وجود التلفزيون. كما أطلقوا النار على تماثيل بوذا في إحدى الجبال. قبل أشهر هاجمونا في محل عماد لاننا نلعب الورق والدومينو للتسلية. ضربونا بالأعمدة الحديدية وأوشكت يدي ان تتكسر. كانوا ملثمين. المجاهدون يشنون غاراتهم ملثمين. لا أعرف لماذا. على هذه البلدة المباركة أن تمشي على هدي الدين قالوا. خرجوا بعد الواقعة وهم يصيحون بأصوات مدوية: الله أكبر الله أكبر. البلد محتل وانتم تلعبون الميسر؟ قالو. انهم من البلدة بالتأكيد. الأمراء الجدد. خلصنا من الحزبيين وجاءنا الأمراء. شككت أن اسماعيل بن سعيد جارنا واحد منهم. كادوا يفتكون بزوجة أخي سعيد السورية لأنها لا تضع الحجاب على رأسها. ذات يوم قيل أنهم سيغلقون المدرسة فهي تعلم الأفكار الغربية. طبعا منعوا كل الصحف من دخول مدينة الرمادي. انها صحف مرتدة قالوا، وعميلة ورافضة. الوقت الوحيد الذي نتسلى فيه بقراءة الصحف حين يجلبها سعيد معه من بغداد. نجعلها وليمة بيتنا في صالون كمال. نفترش الأرض، انا وكمال وعلي وسعيد، حيث تتناثر الصحف على الأرض المغطاة بالبلاط. متعة الصحف متعة جديدة على حياتنا. مثل الفضائيات والكومبيوتر والموبايل.

قدمت لنا لمياء عشاء فاخرا. شوت لنا دجاجة كاملة على التنور المركون في البالكون الخلفي. تبلتها بالكاري والملح وقليلا من معجون الطماطم. كان عشاء لذيذا. كما جلبت أمي من مزرعتنا

الواقعة خلف الطريق العام خبازا طازجا وقلته مع البصل. وطبعا صحن اللبن الخاثر كان حاضرا والخبز الحار. أرسلت خلف كمال لكي يتعشى معنا، لكنه لم يكن في البيت. قالت نجاة إنه ذهب لزيارة علي. ولم يعد لحد الآن. أخي علي يقطن في حي التأميم في مدينة الرمادي. قرب جسر الورار. انتهى من بناء بيته قبل شهرين فقط. قبل الحادث. إنه فرح بالبيت كثيرا، فهو أول بيت يمتلكه في حياته. راتبه تضاعف بعد الاحتلال. لذلك فهو يناصر الأميركان، ويقف ضد الجهاد والمجاهدين. لكن هذا فيما بيننا فقط، في مجالسنا الخاصة، اذ انه يخاف التصريح بآرائه. قال له كمال ذات مساء صيفي، وكنا نجلس أمام بيته، في الثيل الممتد من الباب نحو السياج، لو سمعك المجاهدون لنسفوا بيتك وأجلسوك على الحصيرة. فعلا يمكنهم اتهامه بالتجسس للأميركان وهذا يعني قتله في ليلة مظلمة.

إنني الاقي اهتماما خاصا من لمياء وأمي. لازلت مريضا في نظرهما. الحقيقة أنا مريض في نظر الجميع. ما زال بعض الأقرباء يجيئون الى البيت لرؤيتي والاطمئنان على صحتي. لمياء وأمي اعتبرتا انني رجل البيت الوحيد الآن بعد رحيل أبي. اراهما أحيانا تحدقان الي بشفقة. نظرات الجميع من حولي تحمل الخوف من امكانية فقداني لعقلي. كثيرا من الأحيان لا أعرف ما أعمل. أخرج من الصالون وأدخل الى غرفة الجلوس، ثم أدخل غرفتنا أنا ولمياء، وأرى إبني أحمد يلعب في البلي ستيشن. لا اقاطعه، ولا انغمر بهذه اللعبة كما كنت أفعل في أوقات ماضية. أخرج من الباب الخلفي المؤدي الى الممشى والمطبخ حيث يركن التنور. بيت خالي ذياب مشعشع الأنوار. ابنه رسول لم يزل

مثلي جريحا. كسرت ذراعه فثبتوها له بالحديد الى أن يلتئم الكسر. لكنه يتمتع براس جيد. ضربته لم تكن في الرأس مثلي. لا يعاني من تشوش دائم وقلق وخوف مثلي. أسمع أصواتهم يضحكون في بيتهم. شجيرات النارنج في حديقتهم تتدلى على سياجنا. بيت الدكتور ذاكر معتم. انه في العيادة بالتأكيد.

رائحة الشتاء تشيع في الجو. لا اعرف ما الذي سيدخل الراحة الى نفسي. أجلس ساعة في بيت كمال وأشعر بالملل. أذهب الى السوق وأجلس الى عماد فأشعر بالذعر من سقوط صاروخ أو من غارة أميركية مفاجئة على الجامع. أتجول خلف الطريق في الحقول، أراقب مضخات المياه قبالة بستان حتوش، وأرى دخانا اسود يتصاعد جهة الفلوجة، فأخمن أن ثمة دبابة أميركية تحترق، أو بيتا مقصوفا يلتهب بالنيران. فأعود الى لمياء مرعوبا. بدأت الحياة تضيق علي. لكنني دائما أعود الى مكاني الأليف. حديقتنا الصغيرة. أقف هناك أراقب بيت عمي الذي تحول الى ركام. الى كتلة من الصخور والحديد والخشب.

قالت أمي إن زوجة عمي فقدت كثيرا من الذهب في الغارة. لم تجد من ذهبها شيئا. توارى تحت الصخور والريش والصوف والقماش ونسالة البطانيات وبقايا خزنة عمي التي كان يحتفظ بها في الصالون. البيت هناك، او بقاياه، يسبح بأنين الضحايا، ضحايا ذلك الصباح الأليم. الليل بارد والنجوم تلهث في السماء، وسعف نخيلنا يتحرك ببطء، وثمة أبوام تطير بين الحين والآخر من نخلة الى أخرى. الوطاويط الصغيرة تطير في الأفق مثل أشباح. أنوار بيت أخي كمال تتلألأ في الظلام. انها كهرباء مولد طالب. فالكهرباء الوطنية

مقطوعة كعادتها. الحديقة في الصيف كانت مكان أبي الدائم. يجلس على كرسيه وسط الثيل وينادي على حفيده حسين وعلى بثينة وأمي ليجلسوا حوله. يستلم من أمي آخر أخبار البلدة. من مات ومن قتل. من سيخطب ومن سيتزوج قريبا. وأمي تحولت في شيخوختها الى مجسات تصطاد الأخبار لأبي. أصبحت مصدره الوحيد لمعرفة ما يدور في بيوت الأقرباء وخصوصياتهم. فبعد كل ماتم تحضره، أو عرس، أو طهور، تعود محملة بباقة من القصص والحكايات والأسرار. ذلك بعد أن انحصرت حياة أبي ما بين الجامع والبيت. سمعه ثقل بعض الشيء، وصار يخجل من حضور الأعراس والتجمعات والولائم. فهو يخطئ بالإجابات، لأنه لا يسمع بدقة ما يقال له.

يسأله البعض عن أخبار سعيد في بغداد فيجيبهم عن بيت علي في منطقة التاميم. يسألونه عن رأيه بالقوات الأميركية فيجيبهم عن فلسطين. لكن لا احد يجرؤ على السخرية من أبي لأنه من الرجال المحترمين في البلدة. أقام جامعا وربى أجيالا من الأبناء والأحفاد على الاستقامة. حتى تدينه لم يكن متشددا. في آخر حجة له الى مكة تمسك بالحجر الأسود داعيا من الله أن يهدي أبنائه الى الصلاة وطريق الدين، لكن الله لم يستجب لدعائه. فنحن جميعا لا نصلي الا في أيام الجمع أحيانا. لكننا مع ذلك لم نشترك في نهب المال العام بعد ان جاء الأميركان وسقطت الدولة. جمعنا أبي وبيده مسدس وقال ان اشترك اي واحد منكم بالنهب سأقتله بهذا المسدس. وكان جادا كل الجد.

لم يكن أبي ليتخيل يوما أنه سيموت في اللحظة نفسها مع عمي. عمي يختلف عن أبي بروحه وشكله وآرائه. كان عمي رجلا

عصريا، يحتسي الخمر ويعاشر النساء، ويتأنق في ملبسه، ويضع بينه وبين الدين مسافة، لكنه كان محكوما مثلنا بقيم البلدة وتقاليدها. فبعد أن أشاد أبي الجامع راح عمي يصلي مثلنا في الجمع فقط. لا يهتم بالفروض الأخرى في الأيام العادية. وهو يحب الفلوس أكثر من أبي، ويحب التبجح، لذلك كان يريد أن يبني بيتا لا يضاهيه بيت في البلدة. لا لشيء الا لكي يقولوا أنه بيت حسن. كان يريد أن يكون مميزا في كل شيء يعمله. حتى حديقته اهتم بها بطريقة استثنائية. جلب لها ثيلا أميركيا، وفسلات نخيل من نخيل البصرة المشهور بجودته ونوعيته. لم يزرع الزهدي الشائع في البلدة ولا الخستاوي، بل البرين وأصابع العروس والدقل وغيرها من الأنواع النادرة. جلب الرمان من بعقوبة، والبرتقال أيضا. جلب التين من الموصل والزيتون أيضا. كان عمي حسن أول من أدخل أشجار الزيتون الى الحامضية. لم نكن نعرف من الزيتون سوى اسمه. أما كيف يزرع وكيف يعتنى به ثم كيف يقطف وكيف يتحول الى مادة صالحة للأكل فليس لي، أو لأحد في البلدة معرفة بذلك. قالت عمتي، زوجته، إنه تعلم ذلك من خلال سفراته السابقة الى كركوك والموصل وأربيل وبغداد. فمن تلك المطاعم الفاخرة التي اعتاد الجلوس فيها، مع عشيقاته، وتقول زوجة عمي ذلك بفخر، تعلم أن يصبح الزيتون جزءا من مائدته.

مضت تلك الحديقة مثلما مضى هو والبيت الدبل فاليوم الفخم.

وهاهو أمامي كتلة من الخردة. لا أنوار ثمة ولا حياة. تغلبت التكنولوجيا على أحلامنا في الفخامة. تغلب الانفجار على حياتنا الراكدة في البلدة. قال لي أخي سعيد إنني حتى في الحلم لم أكن

اتصـور رؤيـة المارينز يمشـون علـى تخـوم الحامضـية. يراقبـون أمواتنـا ومدافنهم بمناظيرهم الليلية والنهارية. نحن في زمن العولمة اذن. الدنيا مترابطة مثل بيت العنكبوت.

خلف سياجنا شاهدت مؤذن الجامع حمادي يعكـز علـى رجله متجها الى الجامع لرفع أذان العشاء. لمحت طيف كمال في بالكونه الخلفي. إنه عازم على أخذ نوبة من البكاء على ابنه حسن. حسن الصغير الذي كان لولب جلساتنا في بيت أخي. حسن اجلب لنا مخدة. حسن اجلب لنا ماء. حسن اجلب لعمك سعيد باكيت غلواز أحمر من دكانة عماد. حسن اذهب وانزل لنا كمية من التمر الخستاوي. كان حسن مثل فراشة تدور في مجالسنا الليلية والصباحية في بيت أخي كمال. الشيء الوحيد الذي ظل يعكر مزاج كمال في ابنه حسن هو ضعفه في مادة الانكليزي.

قال له عمه سعيد سأساعدك في تعلمها. وراح يجلب له قصصا مبسطة بالانكليزية من بغداد. مصورات بلاستيكية من شارع المتنبي. وأهداه قاموسا عربيا انكليزيا لكي يفك اسرار لغة شكسبير. لهذا ربما فرح حسن في المرة الأولى التي رأى فيها دورية اميركية راجلة تمر في الطريق المحاذي لبيتهم. اذ بدأ يتكلم معهم بانكليزية ركيكة وكان الجنود يرطنون معه بفرح. أخذ سعيد يكرس ساعة كاملة لحسن في تعليمه اللفظ السليم ومعاني الكلمات وتصريف الأفعال. وكان حسن يتفاخر أمام أقرانه أن عمه سعيد عاش في أوربا ويتكلم ثلاث لغات، وجلب معه زوجة سورية جميلة. لا تضع الحجاب مثل نساء القرية وتسوق السيارة ببراعة. كان حسن يجاهد في ارضاء طلباتها من

حياشة التمر وجلب العطور وخصها بالتين اللذيذ والتوت الأحمر المقطوف توا من بساتين البلدة. كان كلما جاء سعيد من بغداد يبدا يتوسل به للذهاب الى السباحة في نهر الفرات. أفضل مكان للسباحة طبعا هو الضفاف المحاذية لبستان حتوش، برماله الناعمه وتدرج المياه في النهر، والمناظر الجميلة التي تتبدى من هناك في الضفة الثانية. وكان سعيد يحب حسن كثيرا ويحاول ارضاءه بأي طريقة كانت.

ومن بقايا حديقة عمي كان حسن يجلب التفاح الفج والأجاص والكمثرى الذي استوى للتو. كان يخاف من غضب عمي حسن اذا ما رآه يسرق الكمثرى خاصة قبل أن ينضج. لا أعرف كيف ستكون عليه علاقة عمي حسن بابن ابن أخيه، حسن، في العالم الآخر، وهما اللذان رحلا الى السماء في اللحظة نفسها.

الأعمدة الكونكريتية الضخمة التي يتميز بها نمط الدبل فاليوم. تنتصب هناك في العتمة مثل أشباح. تهاوت بفعل الانفجار مثل قوالب من الزبدة. رغم أنني درست المحاسبة في جامعة بغداد، لكنني لم أتخيل أن تصل شدة انفجارات الصواريخ في هذه الأيام للدرجة التي تحطم فيها أعمدة هائلة مثل أعمدة بيت عمي. كانت مصنوعة من الاسمنت والحصى والرمل والحديد المقاوم، وهي التي قدر لها أن تحمل عشرات الأطنان من ثقل سقف بيت عمي، بشرفاته العديدة وسقوفه وغرفه العلوية ومزاغله وأروقته. شاء عمي أن يكون البيت أعجوبة البلدة، بروح الشخص الذي يريد ان يعمل كل شيء بطريقة مثالية، ولا يريد منافسة أحد له في أي عمل يقوم به.

قالت أمي ذات ليلة إنها سمعت أصواتا قادمة من ركام بيت عمي في ساعة متأخرة من الليل. قالت إنها تصورت أن محمدا، تقصدني، مر بحالة من التعب وراح يحكي مع نفسه. لم تقل صار مجنونا. حين أطلت علي في الصالون وجدتني نائما مثل صخرة. خرجت من الباب الخلفي واتجهت الى الحديقة ورأت رجلين وسط ركام البيت. كانا يضيئان مصباحا يدويا يشتغل على البطارية، وهما يحفران في أحشاء البيت ويتهامسان. حسبتهما جنودا أميركيين جاءوا لمعاينة البيت بعد هدمه. لكنها رأت دشداشتيهما الداكنتين وهيئتيهما المنتميتين لأهل البلدة. ما الذي يفعلان في هذا الليل وسط ركام البيت؟ في الوهلة الأولى خفت أن يكونا شبحين للأموات الذين رحلوا من البيت. جاءا يتفقدان المكان الذي ارتفعا منه الى السماء. ثم أخذت الأمر بحسن نية. اعتقدت أنهما من أبناء أخيها، ذاكر أو رسول أو محمد، ينبشان في الركام لأمر ما.

اقتربت من السياج وصاحت بصوت عال: رسول! محمد! ذاكر! وحين سمع الرجلان الغامضان صوت أمي ركضا هاربين. خرجا من الجانب الآخر من السياج المتهدم. توغلا في بساتين النخيل المتناثرة. في اليوم الثاني أخبرتنا أمي بالحادث، ونحن جلوس في بالكون كمال، وهي تتعجب من الأمر. قال لها كمال ربما أنت تحلمين. قالت كلا كنت في كامل وعيي. أفقت من النوم بعد أن رأيت حلما جميلا عن الحاج حسين. وخرجت الى الحديقة لألقي نظرة على السماء. اذن فهما لصان، قال كمال. سمعا بوجود ذهب في بيت عمي وجاءا ليفتشا عنه في الليل. وصلت بالناس الدناءة لهذه الدرجة، قالت أمي. وأكثر من

ذلك. قال كمال. الم تري في التلفزيون البارحة. عرضوا لقطات عن تفجير في أحد الأسواق. وكان هناك شباب استغلوا حالة الفوضى بعد الانفجار. هجموا على المحلات المهدمة، وراحوا ينهبونها تحت بصر الآخرين وسمعهم. وصل شعبنا لدرجة واطئة من الدناءة. تخيل الجثث في الشارع، وأنين الجرحى، وثمة من يفكر بسرقة البضاعة من المحلات!!! نحن شعب بدون كرامة. قلت له يا أخي كمال لا تعمم. هل سرقت أنت حين دبت الفوضى؟ قال لي كلا. هل قتلت أحدا؟ قال لي كلا. قلت له هناك ملايين لم يسرقوا ويقتلوا ويهدروا كرامتهم.

حينها فقط صمت كمال على مضض، وهو يكبت روحه الفائرة. تغير كمال كثيرا بعد الحادث. اتذكر أبي رحمه الله حين سقطت الدولة واستبيح كل شيء. وقف في الحديقة كما اقف انا وجمعنا كلنا. انا وعلي وكمال. كان سعيد غائبا لم يعد من غربته بعد، وكان أبي يحمل مسدسنا بيده. بدأ ينظر لنا بطريقة مرعبة. وأبي حين يغضب تتوهج عيناه مثل جمرتين. قال لنا اسمعوا. أعرف أن الدولة قد زالت، والمخازن لا حامي لها، والأملاك العامة معروضة تحت السماء. لم تعد هناك شرطة ولا جيش ولا أمن ولا سجون. لذلك بدأ كل فرد يتصرف حسب ما جبل عليه. حسب أخلاقه وأخلاق العائلة التي تربى فيها. أنتم أولاد الحاج حسين. إن سمعت أن أي واحد منكم سرق شيئا او اغتصب مالا حراما، أو قتل من أجل المال سأقتله بطلقة واحدة دون أن يعلم. حتى لو كان إبني. لا أريد أن يقال عني في البلدة إن أبنائي لصوص. مهما حدث. تذكروا، مهما حدث. الجامع أمامكم، شيدته من كيسي الخاص، وصرفت جهدي مئات الأيام

لبنائه، كي يصبح مصلى لهذه البلدة البسيطة. ولم أنتظر أي ربح من وراء ذلك. الجميع يعرف الحاج حسين. بلغ عمري اليوم خمسة وسبعين سنة ولم أدخل مالا حراما الى بيتي. لا أريد في نهاية عمري أن يقال عني إنني أب للصوص.

طبعا كان أبي يدرك جيدا أننا لم نترب على السرقة أو استغلال الفرص لكسب المال. رأى ما يجري في البلدة فأراد التحوط للأمور. طالب الذي يمتلك اليوم محول الكهرباء تتغذى منه البلدة بالكهرباء، قيل أنه سرق الكثير. كان ابنه حسب الشائعات يشتغل عاملا في بوفيه المعسكر الأميركي القريب من الجسر. قيل إن مشتاق سرق بغفلة من الجنود كيسا يحتوي على عشرات الرزم من الدولارات. ثم ترك عمله واختفى أكثر من شهر. وبين ليلة وضحاها صار أبوه طالب يمتلك محولا للكهرباء، وسيارة، ومحلا لبيع الأدوات المنزلية. وطالب متزوج من ابنة خالي حماد من زوجته الأولى. ابنة خالي التي تشكو من العرج. تزوجها كونه كان أفقر شاب في البلدة. طالب، وكعادته أطفأ محوله الكهربائي في تمام الساعة الواحدة ليلا. سقطت البلدة في ظلام دامس. هذا وقت مناسب لتحرك الجنود الأميركان والمجاهدين. اما الكهرباء الوطنية فمقطوعة منذ الصباح.

لا أستطيع النوم. نام جميع من كان داخل البيت. فراشي هناك ملقى في الصالون. كوابيسي تنتظرني تحت الأغطية. تلمست طريقي الى الباب الخلفي. صعدت الى السطح. السطح أكثر أمانا من الحديقة. كانت البلدة تعيش في ظلام دامس.

◆◆◆

أخي علي لم يزرنا منذ أسبوع. في الخميس الماضي سافر مع زوجته سندس الى بغداد. سافرت سندس من هناك الى الناصرية، مسقط رأسها، فيما بقي علي في بيت سعيد. زاروا بيت عمي حسن، هو وسعيد وزوجته في منطقة نفق الشرطة. أكيد أن لديه أخبارا دسمة عما يجري في البلد. أنا أنتظر كمال لزيارة أخي علي. ثمة برودة في الجو. النخيل يتحرك بفعل هواء خفيف. أضواء البلدة معتلقة تتبض بين بساتين النخيل. انها الكهرباء الوطنية. انقطعت اليوم منذ الصباح وعادت عند الغروب. كنت اقف في وسط الحديقة اتأمل السكون وحياة البلدة التي تغيرت كثيرا. في رأسي أصوات ضاجة لنساء ينحن ورجال يصيحون وأطفال يتصارخون. تنطلق تلك الأصوات فجأة وتختفي فجأة وكأنها تعيدني الى تلك الأيام السود التي قضيتها جريحا طريح الفراش في أكثر من مكان وبيت. انفتح الباب الخارجي للحديقة واطل كمال من عتمة الليل. جاء كمال الى الحديقة ووجدني واقفا مثل مسمار عتيق. قال كمال:

- لم تبلغ الثامنة مساء بعد. نجلس ساعة ونعود. أحس بالملل وروحي تختنق.

- أنا أيضا. لابد أنه جلب جرائد من بغداد. نحن نعيش في قبر داخل هذه المدينة.

أعرف ما يحس به كمال في هذه اللحظة. فهو في كل مساء يتذكر حسن ولا يجد له مكانا يرتاح فيه. يجول بين البالكون والحديقة والتنور الطيني. يقف على كتف الساقية. يناجي النخلة التي زرعها حسن ورعاها. انه مثلي تقريبا رغم انني لم افقد احدا من اولادي

والحمد لله. جلب كمال سيارته الأوبل الحمراء وركبت معه ثم اتجهنا الى الطريق العام. الجامع مغلق. الأضواء لا تنير سوى منارته العالية. دكاكين السوق مكتظة بالزبائن والمتسكعين والمجاهدين والجواسيس ومتصيدي الأخبار. هناك دكان عماد الذي يبيع الحاجات المنزلية. دكان عبيد يبيع ادوات الزراعة من بذور ومناجل وأدوية لقتل الحشرات وأدوية للرش على الحقول وأسمدة كيمياوية. عبيد صاحب المحل كان صديقا لاخي سعيد. رغم أنه كان عضوا في حزب البعث لكنه كان منفتحا ويقولها بصراحة انه اصبح بعثيا لكي يقبل في جامعة البصرة. لم يكن متعصبا للحزب ولم يكتب التقارير. كان اخي سعيد يحبه كثيرا لانه سريع النكتة ويمت الينا بقرابة بعيدة. محل الانترنيت يكتظ بالشباب. وكذلك محل السي ديات.

سمعنا نشيدا مسجلا يتحدث عن بطولات المجاهدين، ولم نستطع رؤية الشاشة التي لا بد انها تبث مشاهد لذبح الجواسيس. الطريق غير مكتظ الآن وكان كمال يسير ببطء. لاحظت عدة حفر على جانب الطريق تآكل فيها الاسفلت بسبب انفجار العبوات التي كانت تزرع على جانبي الطريق. دمروا الطريق دون فائدة. كان الطريق جميلا وممهدا قبل هطول هذه الكارثة علينا.

وصلنا استراحة علي النجرس، وهي بيت فخم بناه على جرف الفرات بالضبط وبجانبه حديقة مليئة باشجار الرمان والتفاح والأجاص والتين. قيل انه من محدثي النعمة. قلت لكمال ونحن نرى المصابيح المشعشعة على الماء:

- انظر علي النجرس اشاد له قصرا على الفرات مثل قصور صدام حسين.

- طبعا من المال الحرام.

- أظن أنه لن يتمتع به طويلا.

- من يحاسبه؟ الحكومة غير موجودة والأميركان لا علاقة لهم بالنهب والسلب. اتذكر كيف قطع أسلاك الكهرباء كلها من هيت حتى الفلوجة وباعها الى تجار غامضين؟

- قلنا ان يوما ما سيأتي للمحاسبة لكن لا يبدو ان هذا اليوم سيأتي.

- من ضرب ضرب ومن هرب هرب. لم تقع الفأس سوى في رؤوسنا نحن المساكين.

بدأ بيت علي النجرس يتوارى في الظلام خلفنا. على اليمين تلوح اضواء متحركة في الخط السريع الواصل بين بغداد وعمان ودمشق. الطريق لا يغلق الا في الثانية عشرة في منتصف الليل. قيل ان علي النجرس جمع امواله ايضا من تسليب السيارات المارة في الشارع ذاك. تجاوزنا منطقة البوعيثة، وبدأ هواء الليل البارد يحرك الاغصان في الاشجار المزروعة بين الشارع والنهر. كان سعيد يقول كلما مررنا من هنا: أن هذه المنطقة هي الأجمل في ضفاف الفرات. بقيت على حالها لم تتغير كثيرا رغم مرور عشرين سنة. الضفاف المطرزة بالطرفاء والصفصاف والغرب، والمياه اللاصفة تحت نجوم الليل، وبساتين الفاكهة المحيطة بالنهر من الجانبين. عرف علي النجرس كيف يختار موقع بيته، قلت لكمال. كلهم يتصرفون مثل صدام حسين. على

النجرس صدام صغير انفتح أمامه المجال لكي ينمو. قال كمال وهو يضغط على دواسة البنزين كما لو كان يفرغ حزنه وغضبه في جوف سيارته الأوبل.

ثمة روائح لاسماك تأتي مع الهواء. الفرات لا نراه لكننا نشمه من بعيد. الظلام يخيم على البساتين وأصوات طائرات مروحية يتصاعد في الفضاء. معظم بيوت القرى على الجانب الايمن تنعم باضواء مشعة. كمال يركز انظاره على الطريق وطلب مني سيجارة رغم انه لا يدخن. سألته ان كان ثمة شغل مع علي. اجابني انه يود تغيير الجو فقط. فقد التقى علي في الرمادي هذا اليوم لكن روحه تكاد تخرج من صدره. تجاوزنا منطقة البوفراج بنخيلها الكث وبيوتها المتناثرة بين الحقول. بدت لنا اضواء الرمادي مثل شمس بعيدة. الجسر لا نراه لان اضواءه تطفأ عادة. يبدو ان هذا الجسر منحوس. فاضواؤه ظلت تطفأ في الليل خوف القصف منذ الحرب العراقية الايرانية. الحرب اللعنة التي ملأت مقبرة الحامضية بعشرات الأموات الإضافيين.

قبل الوصول الى رقبة الجسر رأينا مصابيح يدوية تنبعث من بين الظلام. كانت في وسط الطريق تماما. اما أميركان أو مجاهدون. لا أحد يعترض طريق الناس سوى هؤلاء الاثنين.

خفف كمال سرعته وأستبدل المصباح العالي بالمصباح الخفيض. رأينا سيارتي همر واقفتين على جانبي الطريق مطفأتي الأضوية. جنود يعتمرون الخوذ اتخذوا مواقع دفاعية على الأرض وبنادقهم موجهة الينا. اتجه اثنان يحملان المصابيح الينا وفتح كمال

بلور النافذة وجلسنا خائفين. قال واحد منهم بعربية ركيكة قفوا، الجسر مقطوع. شكرا شكرا قال كمال وهو يتلعثم. انزلونا من السيارة وبدأوا بتفتيشها. نصبوا كمينا على ما يبدو. لم يجدوا شيئا في السيارة. ومثل حلم شاهدت قنبلتين ضوئيتين فوق معمل اسمنت الرمادي اضاءتا السماء لعشرات الكيلومترات. راقبت انطفاءهما البطيء. على يسارنا جزيرة الطرفاء وسط الفرات. ظلامها دامس. قيل ان بعض المجاهدين يختبئون فيها ليلا. وفي الليل يصوبون هاوناتهم على القاعدة الأميركية قرب الجسر. تزامن ذلك مع انقطاع الكهرباء فجأة في منطقة البو فراج. القنابل الضوئية أصبحت مألوفة لنا. ذات مرة أحرقت بيتا من بيوت البلدة بعد أن سقطت على مخزن للشوك يلاصق البيت.

استدرنا بصعوبة على الطريق الضيق، وخلفنا الجنود وراءنا لكنني كنت اشاهد حركة مصابيحهم كلما استدرت خلفي. على حين غرة دوى انفجار هائل هز سيارتنا. انفجار احسست به يحاول اخذي مثل الماضي الى السماء. لقد عاد الخوف الى داخلي. هل يعقل ان الجنود استهدفوننا بعد ان عدنا؟ لكن الصوت ليس صوت اسلحة خفيفة او قاذفة انبوبية. انه صوت هاون. لا بد انهم ضربوا القاعدة. انفجار آخر في مكان ما. انفجار ثالث، والظلام سيد الطريق. على اليسار نخيل وعلى اليمين جزيرة الطرفاء التي تمتد قريبا من قصر علي النجرس. كنا نسمع أزيزا فوق، في النخيل. خفت ان يستهدفوا سيارتنا خاصة وان الأضواء الخلفية مضاءة. ثمة مواجهة بين المجاهدين والجيش الاميركي. قلت لكمال بعصبية: اوقف السيارة ودعنا نترجل

تحت الطريق. اوقف كمال السيارة على عجل وأطفأ أضواءها ووجدنا أنفسنا تحت، في الأرض المنخفضة، تحت سعف النخيل. كنت أخمن انني سأرى أو أسمع سيارات الأميركان وراءنا.

سمعت صوت قذيفة مرعبة مرت فوقنا. لقد جن هذا العالم. أرعبوا غربان النخيل والجرذان تحت الشوك. وأرعبوا البقر. أرعبوا الأرانب البرية. أرعبوا خلد الماء في رمل الفرات. فزت العناكب من بيوتها. صرخ طفل في بيت قريب من بيوت البوفراج. الصراخ في الليل مثل نعي. حين تمرق القذيفة في السماء تصبح مرعبة. يقول كمال إن القذيفة التي تسمعها لن تقتلك. تعلم ذلك في أكاديمية الحرب العراقية الايرانية. كمال مختبئ تحت حلفاية على جانب الطريق. وكنت أضع رأسي في التراب. أتنفس بقايا الصدأ والحديد والأشنات النهرية وبقايا الديدان. تمنيت لو كانت اريكة الصالون هنا لكي أختبئ تحتها. الشظية الشبح صارت تتحرك في مكان ما من رأسي. كم قذيفة مرقت فوق رؤوسنا؟ لا أعرف.

لم أفق من الرعب الا حين شاهدت مصابيح سيارة في الشارع. قلت لكمال: لقد سار الشارع فلنهرب من هنا. ركضنا نحو السيارة متعثرين بجذور الحلفاء والعاقول والشوك. وكانت السماء غائمة. بدأت تنث مطرا خفيفا على الحقول، وبلور السيارة، ومياه الفرات. الفرات الذي لا أتخيله سوى جثث. ذلك بعد ما رأيته قبل شهور في تلك المهمة المرعبة التي كلفني بها الدكتور ذاكر.

وجدنا بيوتنا تغرق في الظلام.

نجاة، زوجة كمال، تضيء فانوسا نفطيا في غرفة الجلوس. ظلها يرسم شكلا غريبا على الحائط.

- عدتم سريعا من بيت علي! هل رأيتم الجامع؟

- نعم الكهرباء مطفأة فيه، لم نر شيئا.

- جلبوا قتيلا الى الجامع.

- من هو؟ هل هو من الحامضية؟

- كلا، انه من منطقة ابو عبيد. لا نعرفه. قتله الأميركان في العصر.

خرجنا أنا وكمال من باب السياج مهرولين. كنت اخشى أن يكون شخصا نعرفه. مشينا في الطريق المرصوف بالحصى. على يميننا الساقية وعلى شمالنا بيت عمي، أو بقاياه. سنذهب الى مؤذن الجامع وراعيه حمادي. لا يبعد كثيرا عن بيت عمي. أحسست من خلال الظلام أن كمال ينظر باستغراق الى بوابة البيت المنتصبة مثل أثر تاريخي. لم نتكلم بشيء. الرعب لما يزل يملؤ صدري من القذائف التي حلقت فوق رؤوسنا قبل ساعة. قبل أن نصل بيت المؤذن شاهدناه يتجه الينا فألقينا عليه السلام وسألناه عن القتيل. أخبرنا أنه لا يعرفه. جلبه ثلاث شباب بسيارة أوبل وطلبو منه الاحتفاظ به في الجامع لحين أخذه غدا. قال حمادي إنهم من المجاهدين. من منطقة أبو عبيد. من هو القتيل؟ هل نعرفه؟ سأله كمال. قال حماد إنني تمعنت في وجهه، وجهه غير عراقي. أظنه يمنيا أو سعوديا أو مغربيا. المهم هو اسمر داكن، يبدو أن طلقة بكتا أصابته في صدره. عرفت من الشباب ان مجموعة من المجاهدين كانت تختبئ عند جرف النهر فرصدتهم

طائرة مروحية وهاجمتهم. قتل الشاب هذا وفر الباقون، ثم أخلوه بعد اختفاء الطائرة. أحسست بالراحة لعدم ذهابنا لرؤية القتيل. منظر الدم صار يعيث الفساد في روحي.

سرنا راجعين برفقة حمادي الذي قال إنه سيذهب الى الجامع لكي يفتح الشبابيك، ويهوّي الجامع. لا خوف من تعفن الجسد، فالوقت بارد كما قال. هل تذهبان معي؟ سألنا حمادي حين حاذينا بيت كمال فرفضنا. قال كمال أريد أن أنام. فغدا لدي شغل في دائرة الأوقاف في الرمادي. أما أنا فشعرت بالرعب من فكرة الذهاب الى الجامع ومشاهدة جثة.

مضى حماد نحو الجامع ودخل كمال الى بيته.

اتجهت أنا الى بيتنا. اعتقد ان هذه الليلة ستكون مليئة بالكوابيس. إنني أخاف النوم. النوم أصبح عذابا لي.

لا أرى خلاله سوى الجثث، والغرقى، والعيون المرعوبة التي شاهدتها قبل أن أغيب عن الوعي، وذلك في يوم القصف إياه. وجدت لمياء وأمي وصبرية، أم ذاكر، جالسات في الصالون. وكانت لمياء كعادتها، تقص لصبرية يوم وصول سعيد الى البلدة. سألت صبرية عن رسول فقالت انه يتحسن، وسيزيل الدكتور في مستشفى الرمادي البراغي الرابطة للعظام من يده غدا. لمياء واصلت حديثها عن وصول سعيد. حكته لمياء عشرات المرات. للزائرات، ولصديقاتها، ولي في غرفة النوم، حتى انني حفظت تفاصيل ذلك اليوم بحذافيره كما يقال. رغم أن سعيد كانت له قصة أخرى عن يوم وصوله الى الحامضية. قالت: كنت قد غسلت صحون الليلة الماضية في المطبخ. وضعت أفخاذ

الدجاج في قدر مليئة بالمياه لكي تتحلل من الثلج. ثم خرجت من المطبخ. نظفت التنور من بقايا الخبز. عزلت الغاز عنه لكي لا يمد ابني حسين يده ويعبث بالغاز. وكانت صبرية زوجة خالي ذياب تتكلم مع البقرة لكي تسترخي وتحلبها حلبة الصباح. سودة يا سودة أنتي مدللة ومحبوبة. الصباح كان هادئا ، والشمس حارة منذ البداية. محمد لم يأت من عمله منذ أسبوع. كان يشتغل في جرف الصخر ، القريب من مدينة كربلاء. حفارته في معمل للحصى. وهو لا يأتي الا مرة كل أسبوعين. كان الحديث يدور عن عودة سعيد. لقد زال السبب الذي يمنعه من الرجوع الى الوطن. فقد سقطت الدولة ، زال حكم البعثيين. وجاءنا الأميركان. نحن نعرف أنه كان ضد الحكومة. كنا وخلال الأشهر التي أعقبت انهيار الجيش نتوقع عودته. عاد كثير من الأشخاص الذين تغربوا عن الوطن لهذا السبب أو ذاك. بعضهم عاد مع الكاميرات التلفزيونية ليسجلوا كيف يتم اللقاء بالعائلة. بعضهم عاد ولديه دفاتر من الدولارات. ثم رأينا بعضا من تلك البرامج بعد أن جلبنا الساتلايت الى البيت. اليوم نصف البلدة تمتلك الساتلايت. هذا شيء لم نعرفه أيام حكم صدام. عرفنا صدفة أنه حي في بلد من بلدان العالم. ذلك قبل سنين. ذات يوم عاد علي من المدينة وأخبرنا أنه قرأ له مقالا في جريدة أردنية. هذا يعني أنه حي. الحي يرى الحي ، والميت تحت التراب.

كانت لمياء تستمتع برواية التفاصيل. ذلك حسب النساء الموجودات في الغرفة ، أو الحديقة ، أو حقل البرسيم.

التبجح من عادتها. أحيانا تختلق اضافات ليست موجودة في روايتها السابقة. كانت تسمي أمي عمتي، وتسمي أبي عمي، هي لم تر سعيد الا في الصور. الصور التي تركها لنا بعد رحيله. كانت هناك عشرات الصور تسجل أيامه في الجامعة. وفي بغداد التي عاش فيها حين كان جنديا في بعقوبة. كانت الصور مع طالبات في الجامعة. مع أصدقاء يضعون قناني البيرة في البارات البغدادية. تلك الصور كنا نخفيها عن أبي كونه يكره الخمر. وفي الفنادق التي كان يعيش فيها أثناء ما كان جنديا في بعقوبة. عشرات الصور التي تركها لنا نحن أخوته وأصدقاءه، بعد أن تحول الى أسطورة في البلدة. تقارير عماد والمنظمة الحزبية كانت تقول إنه يعيش في الجزائر. وأخبار تصلنا تقول انه يعيش في سورية. الوحيد من المنظمة الحزبية في الحامضية عبيد الذي لم يكتب عنه التقارير وكان يسأل عنه باستمرار. وكنا لا نأمن لأحد. وذات يوم وصلت مؤذن الجامع حمادي رسالة منه. كانت قادمة من لندن. وكنا لا نعرف أيها نصدق. على أية حال اتفقنا أنا وأبي وعلي وكمال اذا ما سؤلنا من مديرية الأمن أن نقول إننا لا نعرف شيئا عنه. هم حكومة، ويعرفون كل شيء. ونحن مستعدون أن نتبرأ منه.

لكن لمياء كانت تقص للنساء أخبارا كما لو كانت على علم بتفاصيل لا يعرفها الا من كان معه. اختلقت قصة لزواجه في بريطانيا. وكيف انه يملك ابنتين اجنبيتين. وهو لا يحكي معهما باللغة العربية. زوجته لم تكن مسلمة. واختلقت قصة أخرى عن عيشه في الجزائر ومن ثم هجرته الى كندا ولا اعرف لم اختارت كندا. ثم أخبرت

البعض انها عرفت أن لديه بناتا وبنينا في مدن أوربية لم تسمها. لمياء لديها خيال لا يتناسب مع تحصيلها الدراسي المتواضع. النساء يدهشنني دائما. قالتا لمياء إنها تركت العجوز والعجوزة، وهذان الوصفان تستخدمهما لأبي وأمي، على عادة أهل البلدة. قالت كانا مستلقيين سوية في الصالون. عمتي تقص لعمي عن بيت علي وأين وصلت مراحل البناء. سمعت الطرق على الباب. ظننت أنه كمال جاء يطلب شيئا من البيت. أو أن حسن جاء يستعير المنجل، أو شيئا آخر لعمل في الحديقة. لهذا تلكأت في فتح الباب. قلت لنفسي كائنا من يكون عليه أن ينتظر الى ان أتم تنظيف التنور الحديدي من الشحار.

في الحقيقة كنت انتظر من عمتي أن تفتح الباب خاصة وهي الأقرب اليه. حين تواصل الطرق قلت لا بد أن عمتي نائمة قرب عمي، وهما لا يسمعان الطرق. عمي ثقيل السمع، لا أرتجي منه أن يقوم ويفتح الباب. الأولاد ذهبوا الى بيت كمال. بثينة وأحمد وحسين يخرجون الى بيت كمال ما أن يتناولوا الفطور. انها عطلة المدارس. هناك يلعبون مع حسن والأطفال. في الحديقة. عمتهم نجاة تحبهم كثيرا. ذهبت بتثاقل الى الباب. الطرق مستمر. وصوت سيارة دائرة في الممشى. من يكون قلت لنفسي؟ محمد زوج اختي؟ علي جاء من الرمادي؟ ضيف طارئ من منطقة الشامية؟ ولماذا يلح هذا الطارق على الباب؟ في الحقيقة دق قلبي بعنف. هناك شيء غير طبيعي. أحسه من نمط الدق. أمر سيحدث. سعيد لم يخطر ببالي. أبدا. دقات قلبي تتسارع. أوشكت يدي أن تتيبس على الباب. أصوات في الخارج. فتحت الباب. إنه رجل. تبالغ لمياء بحسها الأنثوي وتكرر أكثر من مرة. إنه

رجل. رجل غير رجالنا. لم أره يوما عند ساقية الماء ولا في المطحنة. لم أصادف مثله عند أسواقنا، ولا في حقل البرسيم. رجل لم تعرف مثله بلدة الحامضية، لان وجهه كان يعبر عن عالم غير عالمنا، وعن افكار غير افكارنا. بين حلم وحقيقة أحسست أن هذا الرجل له علاقة ببيت الحاج حسين. ملامحه تشبه ملامح زوجي محمد. ويكاد يتطابق مع ملامح كمال وعلي. كما أن صورة للحاج حسين تتراءى في محياه. شاربان كثان ووجه واسع أسمر، وذلك البريق الحاد في عينيه. قلت له دون وعي: هل أنت سعيد؟ قال بلى. ووقف يتطلع في مذهولا. من انت قال لي. قلت له أنا لمياء، زوجة محمد. عشر سنوات مرت منذ أن تزوجت محمد وتركت أهلي في الرطبة. عشر سنوات واسم هذا الشخص لم يفارق البيت. مرات كنت أحس انه موجود في ثنايا الأبواب، وعلى جذوع النخيل في الحديقة، وفي ملابس عمتي، وخلل لحية عمي الكثة البيضاء. البق فوق أغصان اليوكالبتوس يذكرنا به. المطحنة تذكرنا به. الدروب التي سار عليها صبيا، وشابا، تستعيد ملامحه وحكاياته. الشباب الذين زاملوه في المدرسة. الصبايا اللواتي عرفنه شابا يدرس في الجامعة، وكن يمنين نفسهن بالزواج منه. بشرى ابنة عمه حسن دائما ما كانت تعتبره زوجها المفقود. عشر سنوات وأنا أراه في شرفة الطابق الثاني، وفي جذور النخيل، وعند الآس الذي زرعه عمي لكي يؤطر الحديقة. اسمه كان على صخور الجامع التي حملها بيديه فتى، وعلى أكتاف الساقية التي كراها ايام الشباب، وعلى سيقان النخيل العالية في الحديقة، تلك التي زرعها عمي الحاج حسين قبل أكثر من عشرين سنة. وعلى عكاز أحمد

العبد، ولسانه. كان اسمه على أفواه الجميع. كان مثل طيف يجول في البيت. حتى عمي حين يصلي يذكره في دعائه. ويطلب من الله أن يعيده كي يراه قبل أن يفارق هذه الحياة ويدفن في مقبرة الحامضية.

◆◆◆

- سعيد اليس كذلك؟

كررت عليه السؤال وأنا أروم التأكد من الجواب.

- نعم سعيد، وقد عدت.

لم أسمع ما قال. لم أر من كان حوله. لم ألحظ ما كان موجودا في البوابة. ركضت الى الداخل. الى الصالون. فاقدة للوعي. كان عمي وعمتي يتمددان على أريكتين منفصلتين. ينامان نوم الضحى. فهما يستيقظان فجرا لأداء صلاة الفجر. عمي يصلي في الجامع وعمتي تصلي في الصالون، ثم يفطران باكرا. يثرثران قليلا وبعدها يستأنفان النوم. عمتي. عمتي. جاء سعيد. لم أر ذهولا في حياة انسان كما رأيته في عيني عمتي. حجي حجي، رددت عمتي برعب. جاء سعيد. جاء سعيد. ولفت على عجل عصابتها حول شعرها الأشيب. أما عمي فقد فز مثل شاب عمره عشرين سنة. واقفا، لحيته البيضاء ترتجف كما لو كانت وسط عاصفة. سعيد، سعيد، قال وهو يبحث عن شحاطته النايلون. ثم غاب كل شيء عن بصري ولم أعد أتذكر سوى جلوسه في الصالون، على الأريكة. تلك اللحظة فقط عرفت أن هناك امرأة ترافقه قال إنها زوجته. لم أرها أول لحظة. قال هي زوجته السورية. اتضح كل شيء بعد ذلك حين زالت لحظة المفاجأة وأمكنني أن أحاكم الأمور بروية، تقول لمياء.

زوجتي تحب أن تخلق من الحبة كبة كما يقال، ومن الصرصور ديناصور. كل هذا حدث قبل سنتين. كما لو مر على الحادث عشر سنوات. طبعا حصلت لمياء على محبس صغير ذي فص لا زوردي، وعدتها به أمي أنها ستعطيه لها اذا ما جاء سعيد من الغربة. كان ذلك بعد شهر من سقوط صدام حسين، حين بدأنا نرى التحولات الهائلة في حياتنا. وشاهدنا عددا من المغتربين والمعارضين يعودون الى العراق. رافقت بعض الفضائيات سفرهم نحو أهاليهم، ابتداء من لندن وعمان وسورية وايران واستراليا ولبنان. وهم يدخلون من طريبيل والوليد وصفوان وتركيا. كنا نحبس أنفاسنا أمام الشاشة كلما شاهدنا فيلما وثائقيا عن اولئك العائدين.

كنا نتوقع أن يطل علينا وجه سعيد من وراء غبش الشاشة.

كنت في يوم مجيئه أعمل على الحفارة في معمل الحصى والرمل، في منطقة جرف الصخر، قريبا من قصر الأخيضر، وهي لا تبعد عن مدينة كربلاء كثيرا. حين عدت في نهاية الأسبوع كان حماس العودة قد خف في البلدة، ولم أسمع سوى الحكايات المتكررة عن تلك الأيام. أخذت حياتنا تتحول الى حكايات، مثل بيت عمي الذي لم يعد سوى ركام. أمي كما اخبرتني لمياء لم تصدق أن من يقف امامها هو ذاته ابنها سعيد. الشيب غزا رأسه من الجانبين، وسمن جسده قليلا، وعيناه ظل فيهما ذلك التألق الحاد، الذي يصعب مواجهته. اما ابي فعانقه وبكى، بعد أن ظل عشرين سنة يحلم بهذه اللحظة. كان مرتبكا لا يعرف ماذا يقول. يغمغم ويبكي، والتفت الى زوجته الشابة وقبلها ورحب بها ثم قادهما الى وسط الصالون.

الجميع الذين رأوه بعد ذلك اتفقوا على ان ملامحه تغيرت كثيرا. وان شكله اصبح اوربيا.

مازحه احمد الاعرج، صاحب مطحنة القمح قائلا: كأنك لست ذلك السعيد الذي سبح في مياه الفرات وأكل الخباز من يد امه وسرح بالبقر حين كان صبيا. ضحك سعيد ولم يعرف كيف يرد، فذلك يتطلب شرحا طويلا قد لا يفهمه اهل البلدة. لم تمر سوى ساعة حتى اكتظ صالوننا بالزائرين. العمات والخالات وبنات الاخوة والاخوات والاخوال والاعمام والجيران. أوصى ابي على خروف ليعد وليمة الغداء للزائرين، وحين مرت ساعتان وبدأت الجموع تتقاطر على البيت اوصى على خروف ثان لان العدد اصبح كبيرا. وكان سعيد ينظر مذهولا الى هذه الوجوه، الوجوه التي غابت عن ذاكرته عشرين سنة. يرى فيها ملامح عرفها منذ وقت بعيد، عرفها ربما في المدرسة الابتدائية او ايام الحصاد او خلال السباحة في اصياف طفولته وشبابه. ابوه ايضا تغير كثيرا استطالت لحيته وصارت بيضاء، وثقل سمعه، وانتشر في وجهه وقار عميق يجبر الشخص على احترامه. امه احسها كما لو ازدادت قصرا وشيخوخة، وظل وجهها موردا رغم ذلك. تهدمت بعض من اسنانها الامامية ولكن نظرتها المترددة القلقة ظلت على حالها رغم تقدم السنين عليها.

كمال الذي كان موجودا صدفة في بيته جاء راكضا وسلم بحرارة على اخيه الذي لم يعرفه في البدء. قالت امه انه اخوك كمال. لم يلبث كمال سوى لحظات حتى رحل الى الرمادي لكي يخبر اخيه علي وابناء عمومته القاطنين في المدينة. وعن طريق التلفون اتصل بكل

من يعرف سعيد. ثم قفل عائدا الى البلدة، حيث طلب منه سعيد الوقوف جنبه لكي يعرفه بالاشخاص الذين لم يعد يتذكر اسماءهم. قضى سعيد اسبوعا كاملا يحدث الزائرين عما عمل خلال سنواته العشرين التي كان فيها غائبا عن البلد. قص ذلك منذ لحظة هروبه من جبهة القتال نحو الشمال وحتى اللحظة التي دخل فيها حدود العراق عن طريق الاردن.

قال له عماد صاحب الدكان ممازحا: اذن لقد كانت كل تقاريرنا الى الحزب والامن غير صحيحة. حسبناك تقيم في الجزائر طوال هذه المدة. رجحنا انك تعيش في مدينة عنابة. كان سعيد قد نسي الماضي ومآسيه، وغفر كما اخبرنا لاحقا لكل من اساء اليه، او كتب عنه التقارير. فتح عمي حسن بيته ايضا للزوار الفائضين، ووضع الأرائك في حديقته للنساء والأطفال وبعض الرجال الذين لا مكان لهم في حديقتنا. وضعها في الفسحتين الواسعتين اللتين يفصل بينهما الممر الذي يربط بابه الواسع بباب البيت الداخلي. على جانبي الحديقة زرع عمي الآس وزرع اشجار رمان وتين وتفاح ونخيل، وثبت المصابيح في زوايا السياج وكان يبقيها مضاءة طوال الليل، كما ثبت فسقية من الرخام في وسط احدى الفسحتين مع نافورة صغيرة. حين يضيء عمي النافورة وهي تدفق الماء وتشتعل اضواء البيت الدبل فاليوم يبرز البيت بطابقيه العاليين كما لو كان قصرا اسطوريا في وسط البلدة. خاصة في الليل حين نراه من الطريق المحاذي للجامع. شيء مثل اعجوبة. من بيننا نحن ابناء اخيه حسين كان عمي يكن ودا كثيرا لسعيد، حتى انه قرر مع نفسه ان يزوجه ابنته الشابة بشرى.

لقد توارت الفسقية الجميلة وسحقتها كتلة كونكريتية قفزت بفعل الانفجار من سطح الطابق الثاني. كما انهار قسم من المشى الكونكريتي وماتت اشجار الآس وذبل الثيل الاميركي الجميل. عتمة عميقة خيمت على بيت عمي. تتنأ من الركام عوارض كونكريتية هائلة ، وتشع كسرات الرخام من بعيد. فغرت الغرف عن افواهها بعد ان ازيلت الابواب والشبابيك وتهدمت الاسقف. قال لنا سعيد اكثر من مرة انه لم ير بجمال بيت عمي حتى في البلدان الاوربية والعربية التي زارها او عاش فيها. كما اعجب باناقة وذوق عمي في اختيار الستائر والشبابيك والدهانات للواجهات الخارجية واصص الزهور التي كان يضعها في الممرات وأمام الأبواب الداخلية للغرف. وضع فيه كل ما حرم منه اثناء حياته السابقة.

أطفأت نجاة زوجة اخي كمال الاضواء الخارجية ، استعدادا للنوم على ما يبدو.

انقطعت حركة السيارات في الطريق العام. وهجعت حركة المحلات القريبة من الجامع. صاروا يغلقون اسواقهم باكرا خوفا من مجيء الاميركان في الليل. لقد وضعوا علامة استفهام على جامعنا وداهموه اكثر من مرة. من بعيد اسمع بين الحين والآخر صوت انفجار لا اميز ان كان قذيفة هاون او انفلاق قنبلة مزروعة على جانب طريق. قبل اشهر كاد ابي ان يقتل في احدى تلك الكبسات المفاجئة للجامع. كان متجها الى هناك لاداء صلاة الفجر. ابي لم يفوت صلاة الفجر منذ عشرين سنة كما قال. كان الفجر معتما ، فجرا شتويا باردا. قبل ان يدخل البوابة صاح صوت عليه ان يقف وقرقعت اسلحة جاهزة

للاطلاق. ابي لا يسمع جيدا لذلك لم ينتبه الى الاصوات، كما انه لم ير احدا لان بصره ضعف هو الآخر. تكرر النداء مرة ومرتين وثلاث وكادت البنادق ان ترشه باطلاقاتها لكن القائد على ما يبدو كان اكثر حكمة من جنوده، وجه ضوء المصباح اليدوي الى ابي فرأى لحية بيضاء ورجلا مهيبا منتصب القامة فوجئ بالضوء المسلط عليه والاصوات الاجنبية الراطنة حوله فرفع يديه بخوف. اقترب منه المترجم وتحدث معه بالعربية فاخبرهم ابي انه جاء لكي يصلي، ولكنهم مع ذلك صوروه بكامرة ليلية ثم تركوه يدخل الجامع. كانوا قد نصبوا كمينا للمسلحين، اطفأوا اضواء عرباتهم وركنوها على بعد عشرات الامتار من الجامع ثم مشوا بصمت وهم يختبئون في زوايا سياج الجامع وعلى اسفلت الطريق وخلف الشوك الكثيف على الجانبين، وتحت تين حسيبة العاري من الأوراق.

حدث هذا قبل شهرين فقط من موت ابي وتفجير بيت عمي وتحويله الى ركام. كان ابي يقول كلما قص الحادثة لنا: هؤلاء الاميركان متوحشون. الانكليز كانوا اكثر حضارة. وابي اشتغل مع الانكليز في شركات لبناء جسور وتبليط طرق ونصب سايلوات لخزن الحبوب ونصب سكك حديد. منذ بلوغه الخامسة والعشرين وهو يشتغل سائق حفارة، وكان يكن للانكليز احتراما خاصا. منه توارثنا العمل في الحفارات، كما فعلت أنا رغم أنني تخرجت من كلية الاقتصاد. الوظائف لم تعد تطعم خبزا خاصة في سنوات الحصار.

بعد قليل سينتصف الليل. اصبح الجو باردا في الحديقة. الهدوء عميق، وما هي الا دقائق وسيطفئ طالب مولد الكهرباء وسنسبح في العتمة مجددا.

قيل ان الكهرباء الوطنية ستنقطع يومين على الأقل.

ضرب المجاهدين أعمدة الضغط العالي خلف جسر الورار. وفجروا احدى المولدات العملاقة التي تربط مناطقنا بالمناطق المقابلة من الفرات.

ما الذي نفعله من دون كهرباء؟

◆◆◆

فعلا لقد غير رجوع سعيد الى البلدة من ايقاع حياتنا كثيرا. هو لم يعد على دبابة أميركية، كما يقول المجاهدون، والذين يحنون للعهد السابق، في وصف من عادوا من المهاجر. رجع بتكسي كما أي شخص بسيط. لهذا يحترمه الجميع. بالكاد حصل على وظيفة في جريدة. منذ عودة سعيد ويوم الخميس غدا يوما مهما لدينا في البيت. بعد رجوع سعيد بأسابيع قعدت انا في البيت بسبب شحة الكاز. توقف المعمل الذي اشتغل فيه فجلست في البيت معتبرا الأمر فرصة لكي أعرف سعيد عن قرب. لحد هذه اللحظة اشعر به غريبا عني رغم أننا أخوة. قد يكون هذا شعور الجميع هنا. كنا ننتظر مجيء سعيد من بغداد كل خميس. كان حسن يبقى واقفا أمام بيتهم ينتظر وصول عمه. حين يرى سيارته الأوبل الصغيرة، قادمة من الشرق يعود راكضا الى البيت صائحا: جاء عمي سعيد، جاء عمي سعيد. غيرت زوجته السورية من رتابة الحياة بين اقربائنا، خاصة بالنسبة للنساء. زوجة

سعيد لا تضع أي غطاء على رأسها، وهذا امر غير مالوف عندنا. تلبس البنطال الجينز وشعرها مقصوص على نمط الحفر. في البداية لم تكن تفهم لهجتنا. وهي تطلب اعادة الجملة او التعليق عدة مرات مع الشرح الموسع من قبل لمياء او نجاة حتى يصل الى فهمها.

قالت لنا ذات مساء وكنا نجلس في الحديقة انها لم تر مكانا في حياتها اجمل من الحامضية. وللمرة الأولى ترى شجرة النخيل مع التمر في قمتها على هذه الصورة. كانت لديها كما قالت صورة غامضة عن العراق. كانت تسوق سيارة سعيد في الطريق الموصل الى بيت عمي حسن وتصل حتى بيت صاحب المحولة الكهربائية طالب، وكانت فتيات البلدة، وحتى شبابها يتعجبون من هذا الكائن الغريب الجديد على المنطقة. سمراء عيناها عسليتان وشعرها اسود قصير وجسد ممشوق. سمع ابي تعليقات في الجامع حول زوجة سعيد فكان يقول للشخص الذي يتكلم حول الموضوع: انها زوجة سعيد وهو عاش في اوربا ولا اريد ان ازعجه حول زوجته. حتى بعض المتطرفين بالدين بدأوا يوصلون انزعاجهم من سفورها ولبسها للبنطال. جاءت أكثر من امراة من المعارف الينا لرؤية هذا الكائن العجيب، وسماع لهجتها السورية الغريبة التي لا تفهم بعض الأحيان. ما كان يضايق امي في البداية أن مها لا تفهم عليها. هذا مفهوم فامي امراة أمية وقروية يغلب على لهجتها شيء من البداوة. في بعض الليالي تجلس مها مع امي ولمياء ونجاة، والبنات يتسلين بمها. يسألنها عن معاني اشياء محلية مثل ما معنى طاوة. وطاوة هي المقلات. أو ما معنى جرباية. وتعني التخت. أو المدقوقة. وهي خليط من التمر والسمسم عادة ما توزع في المآتم

كتحلية بعد الطعام. أشياء مثل هذا القبيل تبعث الضحك العالي لدى نسائنا. فيما تقف مها حائرة أمام هذه اللهجة الغريبة التي لم تسمع مثلها في حياتها.

كانت بثينة عادة ما تلتصق بعمتها مثل القرادة. ما أن تأتي من بغداد حتى ترحل مرة أخرى.

كان الفرات يجذب سعيد اليه مثل مغناطيس. سألته بثينة ذات مرة بلهفة: عمي لماذا تحب الماء كثيرا؟ قال لها لأن اصله سمكة. لم تصدق بثينة بالجواب. وأصرت مثل كل مرة أن تسبح مع عمها وسط النهر.

بعد أسبوعين من رجوعه أصر علينا كي نذهب الى الفرات. وكان الصيف حارا كالعادة. أصبحت أصيافنا جحيما لا يطاق. حتى سعيد أحس بتغير الطقس عن الفترة التي كان فيها قبل رحيله. البلدة في الصيف مثل فرن. لكنه فرن رطب. ولزج. حين تتنفس البساتين رطوبة خانقة، وتهب من صحراء الجزيرة رياح سموم. يصبح المرء كما لو ألقي في سائل دبق.

ذلك اليوم ركبنا سيارة سعيد وسيارة كمال، في الساعة الخامسة حيث انكسرت حدة الشمس، متجهين الى بستان حتوش للسباحة. جاءت زوجة سعيد ونجاة زوجة كمال ولمياء زوجتي وعدد لا يحصى من الأطفال. حسن هو الأنشط بينهم. حتى حسين الصغير جلبناه معنا. كل شيء جميل في تلك العصرية الصيفية. تركنا ابي جالسا على كرسيه في الحديقة وتجلس تحت قدميه امي. انعطفنا الى اليسار وكان سعيد يحدق الى البيوت المحيطة بالطريق. مات كثيرون

وولد كثيرون. شب الصبيان وتزوجوا ، وشاب الكهول. البيت اصبح بيتين او ثلاثة. أسس مجمع طبي يقف امامنا عند المنعطف يشتغل فيه ابن خالي الدكتور ذاكر. المجمع يضم صالة للجراحة وطبيب اسنان وعيادتان احداهما للجراحة العامة والاطفال. انشئ المجمع الطبي على انقاض المستوصف الصغير الذي كنا نجلب اليه لكي نلقح ضد الجدري والكوليرا قبل رحيل سعيد. كنت آنذاك طالبا في السادس الابتدائي. ملامحي انا تغيرت ايضا. وقد اندهش سعيد حين قالوا له هذا محمد اخوك. تزوجت وتخرجت من الجامعة واقتنعت بالعمل في حفارة ابي بعد ان خرج عليّ وكمال من البيت الكبير ورحل سعيد الى المجهول.

الى اليمين حقول الذرة والقت والبرسيم والخضر من طماطم وباذنجان وباميا. اهل الحامضية جميعا يحبون الباميا. تكاد تكون هي الغداء الموحد عند جميع البيوت. الفرات يبدو ناعسا في الصيف. كانوا يعتبرونني افضل سباح في المنطقة. لم لا ، لقد تعلمت السباحة منذ ان كان عمري خمس سنوات. وفي السنة العاشرة صرت أعبر النهر من جانبنا الى الجانب الثاني دون توقف. لقد قضيت طفولتي وشبابي كله في النهر. صيفا وشتاء. اعرفه من امام الحامضية شبرا شبرا. لقد مرت اكثر من ثلاثين سنة على معرفته الدقيقة. أعرف حلفاءه وزهور شواطئه وطيوره. أعرف ديدانه الدابة بين الرمل. أعرف الوانه في الصيف، والخريف، والشتاء، والربيع. كل لون هو بصمة لتحولاته الدائمة. عبرته مئات المرات. سابحا وعبر قارب. حتى اسماكه اعرفها من لبطاتها في الماء.

الفرات جزء من دمي. سعيد على حق.

يلتف النهر، هناك بين الضفتين، مثل كائن اسطوري. عرفه جدي قبل مئة سنة. وعرفه ابي منذ عشرات السنين. وأنا اصبحت خبيرا بأحواله. وها هو حسين الصغير سيلامس أمواجه مع عمه سعيد لأول مرة في حياته التي لا تتجاوز الثلاث سنين.

قالت مها زوجة سعيد انها اول مرة ترى مكانا بهذا الجمال. نخيل وحقول ونهر ومساحات عريضة من الأراضي المزروعة. اشجار مثمرة وطيور غريبة لم ترها في دمشق قبلئذ. كانت مندهشة من النخيل والعذوق المتدلية منها، فهي اول مرة ترى شجرة نخيل هكذا في الطبيعة. قالت انهم في دمشق لا يمتلكون نخيلا. بلد بمثل هذا الجمال لماذا يدمرونه؟

نزلنا من الشارع العام الى الحقول عبر طريق ترابية تمر من بين نباتات العاقول والشوك. هناك بستان حتوش. بستان حتوش في الصيف. بدأت تدور حوله كثير من الاشاعات. سيارتانا تدرجان على مهل. دخلنا في طرف البستان. التفاح يثقل الغصون. النخيل مصفر ثمره او يكاد. البرتقال يحتاج الى بعض الاشهر.

رائحة الصيف تفوح من بين السيقان والجذور. رائحة نفل يابس وبقايا عروق كينا معطرة. نفاش البردي يتطاير بخفة في الجو. والغبار يهيم سكران على سعف النخيل والعذوق واطراف البرتقال، ويسيح نحو شاطئ الفرات المدغل. المياه هناك راكدة تبدو. مياه زرقاء مثل عيني زوجتي لمياء. في الأفق البعيد، قريبا من مدينة الفلوجة طارت الطائرات مثل ذباب خفيف. ليست طائراتنا بالتأكيد. انها طائرات

الاميركان تسير في دورية فضائية. الفلوجة خربت منذ شهر. لكن الخراب كان فظيعا. وسعيد يكاد لا يصدق وجوده في حضرة الفرات. منذ اليوم الاول لوصوله خلع البنطلون الجينز والقميص الجنز والحذاء المخرم، وارتدى دشداشة بيضاء مثلنا. قال له أبي البس دشداشة مثلنا لأنك لم تعد في أوربا أو دمشق أو عمان. هنا الناس تراقب المظهر. لا اريدهم ان يقولوا ان ابن الحاج حسين نسي هويته ونسي بلدته الحامضية.

التزم سعيد بنصيحة ابي ولم يفارق الزي القروي كلما جاء من بغداد.

نزل حسن وقطف لعمته مها عددا من التفاحات الخضراء الفجة. اعطت واحدة لسعيد. وتقدمت سيارة سعيد التي يقودها بنفسه نحو الطريق الرملي الذي يصل الى النهر. في الضفة المقابلة مضخات مياه. اشخاص يتسكعون في الجوار. وعلى ضفتنا كان هناك راعي غنم يورد اغنامه المياه. وليس بعيدا منا قارب حتوش الذي يستخدمه للعبور الى بستانه. بيت حتوش في الضفة الأخرى. كان القارب يرتكز على حجرات كلسية وضعت على الضفة لتكون مرفأ صغيرا. العروق تلطي على جانبي القارب. سوداء من البلل.

المويجات الخفيفة ترفع القارب وتخفضه بهدوء. الذباب الطائر يتجمع برفوف صغيرة تعبر من هذا الجانب الى ذاك. طيور النورس تلعب في الأصيل. اشعة الشمس لما تزل حارة بعض الشيء. كانت مها ترتدي آفرولا داكن اللون وجسدها جميل. هي لاتضع أي حجاب على رأسها. لذلك كان حضورها في البلدة مثار لغط وتقولات، فهم لم

يألفوا نساء سافرات في الحامضية. أخبر ابي سعيد بالامر فاجابه انه لا يهتم لهذه الاعتراضات. لا نريد ان نصدم اخينا بتقاليد القرية وما شاكل، لذلك صمتنا وتقبلنا الامر بروية. سيعيش سعيد فترة ويعتاد التقاليد ثم يرى رأيه بغطاء الراس. اندفعنا مثل قطيع الى النهر. قال سعيد سنتبارى في الفوج نحو الضفة الثانية.

سعيد مثلي سباح ماهر كما عرفناه. لكنه ليس بمهارتي. انا استطيع ان اغطس تحت الماء لاكثر من دقيقة ونصف. واستطيع ان اعبر الفرات على ظهري. لكننا ودعنا السباحة منذ سنين لذلك استغربنا من طلب سعيد بالمجيء الى النهر للسباحة. ركبت الفتيات في القارب المتوقف. خوضن في الماء. نزعت نجاة ولمياء اغطية رؤوسهن تمثلا بمها. راح الجميع يطرطش بالمياه الصافية. كان الاكثر حماسا من بيننا في السباحة هو حسن. يحتضن الموج بصدره. يركل المياه برجليه. يقذف القطرات الى الهواء. يصيح. يصرخ. يناجي الطيور. يقاتل الغربان والنوارس والحمام العابر من غيطة نخيل في هذا الجانب الى غيطة في الجانب الآخر. والفتيات يخرجن سيقانهن في الماء. تتلاصف بشراتهن في هدأة الاصيل. ورأيت سعيد يسبقني الى منتصق النهر. إنه كما اتذكره، جسد متين ولياقة بدنية فائقة. يسبح بطريقة صحيحة كأي سباح محترف. كل البلدة تعرف براعته بالسباحة. كانت براعته محط قصص وروايات اثناء غيابه الطويل. درس سعيد الهندسة في الجامعة، وهذا ربما ما اغرى عمي به وخطط أن يزوجه بابنته بشرى. مهندس سيستلم له كل مقاولاته وسيشمر بالفخر بهذا الزواج. لكن سعيد خيب أمله، وأمل أبي، واختفى فجأة بعد التخرج.

- هل تعرف يا محمد كم ليلة وأنا أحلم بهذه اللحظة؟

- ماذا تقصد؟

- لقد رأيت مدنا اجمل من بغداد، وسبحت في بحار ومحيطات، لكنني ظللت طوال آلاف الليالي احلم بهذه اللحظة. اللحظة التي ساغمر فيها جسدي بمياه الفرات. كنت في كثير من الليالي اقعد الى نفسي في غرفة كئيبة. اضع المشروب جنبي ثم اضع شريطا وأحلم بالفرات. لا اعرف لماذا أحن دائما الى الفرات. في لحظات من الوله والسكر اشعره يتدفق في صدري. تخيل ان نهرا مثل الفرات يتدفق في صدرك. تلك كانت نشوة الهية. نشوة لا توصف.

- اعتقدنا انك ستشتاق الينا نحن العائلة.

- طبعا اشتقت اليكم لكن الغريب في الامر انني كنت اشتاق الى الامكنة اكثر. خاصة نهر الفرات. ارى من بعيد حلفاءه وزنابقه واسماكه وطيوره. كما اشعر مجددا بتلك اللذة التي كنا نستقيها من بناء ابراج من الرمل على ضفافه الرملية. ابراج الرمال التي كنا نبنيها ونحن نستريح من تعب السباحة في الصيف. حيث كانت الديدان الحمر تنبغ لنا من الرمال الرطبة. وعلى مبعدة من الماء كانت ملابسنا المليئة بالرطب والبقع الداكنة. تلك حياة من عالم آخر.

- اتعرف اننا لم نعد نخرج الى النهر منذ اكثر من عشر سنوات. لقد قتلت حرب ايران واحتلال الكويت والحصار والمآسي التي مرت علينا كل رغبة بهذه الرغبات. الزمن تغير وتغيرت الحامضية كثيرا. لقد كبرنا يا اخي. انت كنت تحلم بهذه الأمور لكننا كنا نريد ان ننساها. ان لا نراها امامنا. لم تعد المتعة تعني لنا شيئا.

كان سعيد يتموج بين مياه الفرات مثل سمكة. تبعه حسن وهو مسرور بمجارات عمه في السباحة. أنا من بينهم الأكثر شهرة. النساء عند قارب حتوش يتراشقن بالمياه. ثمة رعاة في الضفة الثانية ينظرون الينا بعجب، خاصة مع وجود لمياء ونجاة ومها السورية زوجة اخي سعيد. أبي لم يعترض على جلب البنات معنا اكراما لسعيد. هناك نخيل بعيد يقف ساكنا على الضفاف الغربية. تحوم بين الحين والآخر طائرات اميركية ثم تغور باتجاه بحيرة الثرثار في الشمال. عبر سعيد الى الضفة الثانية وتراجع حسن الى الشاطئ. حسين ابني يلعب في بركة صغيرة خلفها الفرات على شاطئه المرمل.

بثينة سعيدة بمرافقة عمتها مها. شعرها البني مبلول التصقت فيه نباتات نهرية خضراء. رموش عينيها تلتصقان بعضها ببعض. عينا بثينة تشبهان عيني زوجتي لمياء.

مياه الفرات ساكنة، صفاؤها معروف في هذا الوقت من السنة. اجراس أغنام تدق في جهة الحامضية. اصبحت الأغنام نادرة في المنطقة منذ أكثر من عقد. الحصار قضى على الرعاة أيضا. من جوعهم باعوا أغنامهم واستقروا قرب القرى. تحت بستان حتوش كان هناك جرف عال، تنبت على كتفيه نباتات الحلفاء وقليل من أشجار الطرفاء. كادت أشجار الطرفاء أن تختفي من حقولنا وشواطئنا اذ وجدها الفلاحون وربات البيوت مادة جيدة للتنانير. حدث هذا في سنوات الحصار التي أهلكت الضرع والزرع كما يقال. كانت سنوات سود من حياتنا. أخي سعيد لم يعش تلك الايام. انقطع الغاز والكهرباء. واختفت البضائع. وارتفع سعر الطحين الى السماء. أخي علي، مع انه

مدرس لغة عربية الا انه بدأ يبيع الأكياس الورقية، وفي نهاية الحصار افتتح له بسطة في سوق الرمادي لبيع الملابس. راتبه لم يكن كافيا لسجائره ومشروبه. قال سعيد انه كان في تلك الفترة يعيش في لندن. لندن حلم بالنسبة لنا. ظنه الحزبيون ورجال الأمن أنه كان في الجزائر. في عنابة بالذات. لكن لماذا ظنوه في عنابة؟

المياه تحت بستان حتوش ساكنة لكنها عميقة. ذلك الجرف لم يتغير. اتذكر اننا كنا نأتي الى تلك البقعة للسباحة في فترة المراهقة. ونغازل القرويات وهن يحتطبن العروق أو يملأن عباءاتهن بالحلفاء الطازجة التي يحبها البقر.

الشاطئ مليء بالصخب. ربما لم يشهد مثله منذ سنين. حسن وكمال وعلي وصبية آخرون يغطسون في المياه ويعبرون الى منتصف النهر ثم يعودون. في الضفة الثانية تنتصب مضخات مياه تشفط المياه من النهر وتسكبه في السواقي لكي يصل الى القرى النائية. غرف من الطين تتخفى تحت نخيلات عاليات معمرات. والحمام يعبر الفضاء من الحامضية الى القرى الشرقية القريبة من الحبانية والخالدية. اصبح الحمام كثيرا في السنوات الأخيرة. اختفى الصيادون. وصارت مهنة صيد الحمام اثرا بعد عين. كل شيء يتغير حتى تقاليد صيد الحمام. كم يغير الزمن من الأشياء. حتى اخي سعيد سمن قليلا ودب الشيب في شعره.

كنت اسمع حسن يحاور عمه، وهما يقفان على القاع الرملي قريبا من الشاطئ:

- عمي هل سبحت في البحار؟

- نعم، البحر الأبيض المتوسط، وبحر الشمال، والمحيط الأطلسي، والبحر الميت، والخليج العربي.

- أنا لم أر البحر في حياتي.

- ستراه مستقبلا حين تكبر.

- السباحة في النهر مثل السباحة في البحر؟

- كلا، السباحة في البحر اسهل، لان ماءه ملحي ويحمل الجسد بخفة.

- والبحر الميت؟

- البحر الميت حكايته تختلف. انه ليس بحرا ولا نهرا، نسبة الملوحة فيه عالية جدا لذلك تحمل المياه جسد السابح حتى من دون أن يحرك أطرافه.

- لهذا سموه البحر الميت؟

- لا. السبب لأنه لا يعيش فيه السمك، ولا أي كائنات بحرية اخرى. وبسبب الملوحة العالية اصبح ماؤه دبقا وثقيلا لذلك لا تعيش فيها الكائنات الحية. يمكنك ان تستلقي على ظهرك وتسترخي وتقرأ جريدة دون أن تغرق. طينه يشفي من الأمراض الجلدية. اتذكر انني طليت جسدي كله بطينه بما في ذلك وجهي. فعلا اصبحت بشرتي ناعمة بعد ذلك.

يجد أخي سعيد لذة في مثل تلك الحوارات، خاصة مع الأطفال والصبيان. حين يجلس في الصالون يسرد لبثينة وحسين وحسن ونور والأطفال المتحلقين حوله قصصا من حياته الماضية، ويمتلك قدرة فائقة على تبسيطها وايصالها الى ذهن الأطفال. ربما لهذا السبب تعلق

به اغلب اطفال العائلة. لكنه حين يبدا بالحديث لابي وعمي ولنا نحن الكبار يتكلم بطريقة اخرى. طريقة مثقفين واصحاب تجارب عميقة في الحياة.

بدأت الشمس تقترب من حافة النخيل البعيد. وطار الذباب المسائي فوق سطح الماء. المسطح المائي تحت بستان حتوش تحول لونه الى السواد وصار موحشا. تجمعت النساء قرب السيارتين. ارتدينا ملابسنا. وعلى بعد مئة متر جلب راعي غنم قطيعه الى الضفة الرملية وترك اغنامه تشرب المياه. منظر اعجبني جدا. سيوردها قبل ان يعود الى الحامضية. شبعت من العشب وشربت الماء وها هي تنتظر الحظيرة كي تنام. ليس هناك ذئاب في الحقول. لكن اصوات الثعالب في الليل تنطلق كالنائحات. مذ كنت صغيرا وأنا أخاف من صوت الثعالب. كان أبي يصفني بالجبان. لأنني أخشى الذهاب الى بيت أحد في الليل. هذا قبل أن تضيء الكهرباء ليالي البلدة الموحشة. اليوم الأمر مختلف. فبيوت الحامضية دائما مضاءة، سواء بوجود الكهرباء الوطنية أم بوجود المولدات.

اكتظت السيارتان بالأجساد. الأطفال مسرورون، والنساء يتضاحكن من هذه الرحلة الممتعة. أعتم بستان حتوش. وشاهدنا عددا من الشباب الغامضين يتسللون بين الأشجار. خلفنا ثارت عواصف صغيرة من الغبار، راحت تترسب قليلا قليلا على سعف النخيل وأغصان البرتقال وعلى الشوك المحاذي للطريق الترابي.

- كأنني رأيت اسماعيل بن سعيد مع الشباب. قالت نجاة.

- هل أصبح مجاهدا هو الآخر؟ قال كمال.

- يوميا يأتي الى البيت بسيارة جديدة. من أين لإبن وضحاء هذه السيارات الجديدة. أوبل ومارسيدس وهونداي وفيات وما لا اعرف من الأنواع.

- وهل هذا يعني انه مجاهد؟

- قبل يومين رأيت آثار دماء في الساقية وكان يغسل حوض السيارة الخلفي بالمياه. لا بد أنه ذبح احد العملاء. انه يريد أن يصبح أميرا.

- الجهاد والذبح لا يلتقيان. قال سعيد وهو يضغط على دواسة البانزين.

- سنعيش اياما مظلمة في المستقبل. قال كمال وهو يرفع بلور السيارة تفاديا للغبار.

هطل الغروب فجأة. السيارات خفت في الطريق العام. اتفق الجميع على انهم جاعوا ، وينتظرون وجبة شهية من أمي. وعدتنا أمي أنها ستعد لنا فراريج مشوية في التنور. هذا بمناسبة زيارة سعيد ، وزوجته ، الأسبوعية لنا. لكننا قبل أن نصل جامع الزبير، لكي نتعطف الى اليمين نحو بيتنا ، دوّى انفجار عميق هز هدوء المنطقة بعنف. إنه هاون. انطلق بالتأكيد من بستان حتوش. أعقب الانفجار آخر وآخر، فوضعنا أيادينا على قلوبنا ، وكنا ننتظر رد القوات الأميركية ، وهذا ما أفقد الجميع شهيته للعشاء.

لم أكن راغبا في الذهاب الى بغداد لولا مراجعة الطبيب. لا بد لي من اجراء الفحص كل اسبوع. فالدكتور مجيد طبيب مختص بجراحة الدماغ. عيادته في شارع فلسطين، قرب ساحة بيروت. كان على ما يبدو زميلا للدكتور ذاكر في الكلية. ذاكر هو الذي

أوصلني اليه. اخبرني الدكتورمجيد ان الاصابة التي وقعت لرأسي لم تصل الدماغ والا لما نجوت من الحادث. كل الرضوض والشظايا لبثت عند العظم. الأوراق والتقارير والأشعة السابقة مركونة في مغلف كبير في الحوض الخلفي للسيارة. البلدة تستفيق من سباتها الطويل. بدأت السيارات تتحرك للتو في الشارع. كان كمال يسوق على مهل. اليوم هو الاربعاء، وقد طلب كمال اجازة من دائرته، دائرة الأوقاف، كي يذهب بي الى الطبيب. لا يبدو أن كمال نام جيدا في الليلة الماضية. اراه يتثاءب بين لحظة وأخرى.

لم اعد احب بغداد. رغم أنني قضيت فيها سنوات دراستي الجامعية. الفضائيات ترسم لها صورة متوحشة. انفجارات على الجسور. عبوات ناسفة في الطرق. مواجهات غامضة بين مسلحين والشرطة والأميركان. لا نعرف من يقتل من. قتلى مجهولون وجثث مهشمة. ليست هذه بغداد التي عرفتها في أيام دراستي. السهر في شارع السعدون كان يستمر حتى الصباح. المشي في شارع الرشيد متعة. وساحة الميدان لا تنام. قال سعيد إن الحياة تموت في بغداد منذ غياب الشمس.

الفرات الى اليمين استفاق هو الآخر من حياته الليلية. ماذا رأى يا ترى في الليلة الماضية؟ هل رأى الكمائن الاميركية تحت حلفائه؟ ام شاهد عبور المقاتلين من ضفة الى أخرى بقوارب من خشب؟ لم يعد يرى بالتأكيد فلاحي الفجر الذاهبين الى مضخات المياه لتشغيلها. ذاك عهد مات واندثر. ولم ير ملايات الماء وهن يجلبن المياه من ثروته التي لا تنضب. كما زالت قوارب النقل بين ضفتيه وكانت في طفولتنا

تعبّر المعلمين والمتسوقين والسعاة والضيوف والزائرين بين القرى الممتدة من جسر الرمادي حتى الفلوجة. بدأ الخوف يسيطر على الجميع خاصة في الليل. انعطفنا الى اليسار ونزلنا في الطريق الاسفلتي الضيق الذي يقود الى الطريق الدولي. طريق المقبرة لم يعد سالكا. الدوريات الأميركية حرمت السير فيه. حتى حين دفنوا الشهداء رفعوا رايات بيض لكي لا يتعرضوا للقنص من الثلة المتمركزة على الجسر الصغير فوق الشارع. الدبابات الأميركية تجوب الطريق الدولي رائحة غادية. سيارات الحمل والسيارات الخاصة تسير خلفها تاركة مسافة مئة متر على الأقل. الغبرة تثور من الجانبين. العبوات الناسفة تفاجئ العابرين. والتفتيش يجري بغتة ويريك المسير.

كانت ثكنات الجيش تتبعثر على الجانبين. مغطاة بشبك بني لا تبرزمنه سوى فوهات المدافع. والجنود الجالسون في الثكنات بدوا مثل مخلوقات غامضة. البدلات الرمادية. الخوذ. الوجوه الصغيرة البارزة من تلك الخوذ. والأجهزة المسلطة نحو الشارع والبيوت البعيدة والقرى. لهذا كله صرت اكره الذهاب الى بغداد. لا اريد رؤية هذه المناظر المهينة. انهم يحصروننا مثل خراف. لا يدعوننا نمر الا اذا استداروا الى الجانب الثاني او خرجوا عن الطريق. الاميركان لهم الأرض كلها. اما نحن فنرفع رايات بيض حين نزور مقابرنا. مفارقة لا افهمها. يقول أخي علي نحن نستحق هكذا معاملة لاننا لسنا بشرا. نحن برابرة. تضاعف راتب علي وزوجته عشرات المرات منذ الاحتلال. بنى بيتا في الرمادي. بناه خلال سنة واحدة فقط.

- يبدو الشارع سالكا ، قال كمال.

- ربما لأن الوقت باكر. لم تتفجر اي عبوة حتى الآن.
- هل سمعت القصف في الليلة الماضية؟
- اعتقد انه في الرمادي. سمعته قبل الفجر بقليل.
- سنعود الى البلدة اليوم اليس كذلك؟ لا ارغب بقضاء الليلة في بيت سعيد. امي ولمياء والاطفال يخافون اثناء الليل.
- الشيء الوحيد الجيد في هذه الحرب ان لصوص الليل اختفوا. لا احد يسير بعد الثانية عشرة ليلا.
- لم يعد اللصوص يسرقون البقر والماشية. صاروا يسلبون السيارات في وضح النهار.

هز انفجار شديد الهواء وتموجت السيارة قليلا بين يدي كمال. ارتفعت غيمة دخانية سوداء محاذاة الفلوجة. هذا يعني انهم سيقطعون الطريق لساعة او ساعتين. الغبار يتصاعد في الطرق الجانبية. والبشر مثل النمل عادة ما يجدون مسارب الى غاياتهم كلما انقطع المسير. وهكذا نحن أيضا.

توغلنا في الصحراء مئات الأمتار، لنعود الى نقطة تطل على مدينة الفلوجة.

المدينة تكشف أحشاءها للسماء.

مرت اشهر فقط على أحداث الفلوجة. اطرافها مخربة تماما. بيوت مهدمة. سيارات متروكة. وجوامع لا ترفع الأذان. حتى الطيور هجرتها.

شاعت في البلدة قصص غريبة عن حرب الفلوجة. حفظها أحمد الأعرج بلذة وكان يرويها ويضحك. مثلا قصة تحول الصواريخ بقدرة

ربانية الى سمك. جلب المجاهدون شاحنة مليئة بالصواريخ فأوقفت الشاحنة دورية أميركية كشفت على الحمولة فوجدتها سمكا. يضحك الأعرج ضحكته المقرقرة ويقول: لا نعرف هل هو سمك بني أم شبوط؟ ويردف معلقا: منذ زمان لم نأكل السمك. السمك محجوز كله في قصر الرئيس. أو قصة الملائكة التي نزلت بثياب بيض وراحت تهاجم الجنود الأميركيين بالحصى وتقتلهم مثلما يقتل النمل. يعلق أحمد الأعرج ايضا فيقول: لم لا يذهبون الى اسرائيل لمساعدة أخوتنا الفلسطينيين. ويضحك ضحكته الشهيرة. لكن رغم تندره على تلك القصص، فقد ساهم أحمد بجمع التبرعات للمشردين من الحرب. كل التبرعات جمعت في جامع الزبير واشرف عليها أبي وخالي والدكتور ذاكر وأحمد نفسه.

حين عبرنا جسر الفلوجة وجدنا الطريق مقطوعا ايضا، الطريق السريع، ففضل كمال الذهاب الى الطريق القديم. طريق خان ضاري كما كنا نسميه. لا نعرف بالضبط لماذا يقطعون الطرق. بعض يقول بسبب عبوة ناسفة وبعض يقول لكي يزعجوا الناس.

مثل جثث عتيقة ومتهرئة كانت دبابات الجيش تتراءى تحت النخيل، وعند التلال الصغيرة، وبين الأجمات المصنوعة من صفصاف وبردي وغرب وطرفاء. تلك ما يفترض أن تكون حماية العاصمة بغداد. مخلفات جيشنا الوطني. أموالنا الضائعة بين التراب. تحوم فوقها نوارس بيض تحط بين الفينة والأخرى على شيء ما في الأرض السبخة. كانت الدبابات ذكرى لحروب خاسرة. في الشهور الأخيرة بدأت تتلاشى من أماكنها بعد أن اصبح حديدها الخردة تجارة رابحة. خان

ضاري خراب هو الآخر. جاءت الحرب هذه وكشفت حجم الخراب الذي كنا لا نراه. رغم انتهاء الحرب منذ فترة الا ان كل ما أراه يجعلني اعتقد انها لم تنته بعد. آثارها وتفاعلاتها ما زالت تتواصل. الطرق الخربة. الكمائن العسكرية. البؤس الذي يراه المرء في الأسواق. الانفجارات. القصف. الطائرات الحائمة في الجو. لم اشاهد الذبابة هنا. يبدو انها لا تطير الا فوق البلدة.

بغداد ليست بلدة الحامضية. هنا يمكن مشاهدة شيء بسيط من السلطة. مفارز شرطة وقوات جيش. وحواجز تفتيش بين الحين والآخر. انهم يتطلعون في الوجوه فقط. لا أحد يسأل عن الهوية الشخصية أو يفتش السيارة. قبلئذ كانت هناك اكثر من عشر نقاط تفتيش بين الرمادي وبغداد.

- سنذهب الى عيادة الدكتور مجيد مباشرة، قال كمال. بعدها نذهب الى بيت سعيد. انه قريب من العيادة.

- كما ترغب. لكن المهم ان لا نبيت في بغداد.

بغداد تتغير كل يوم. الحواجز الكونكريتية في كل مكان. سيارات الشرطة تمرق بضوضاء مصمة. آثار السيارات المتفجرة قرب حواجز التفتيش وأمام المؤسسات الرسمية. الغبار يتصاعد من الأرصفة والساحات المتآكلة. وجوه البشر صلدة متحجرة خائفة. حتى تعابير الوجوه تغيرت في السنوات الأخيرة. الرعب هو ما يعشش في مسامات الوجوه. قوافل الفارين الى سورية تتلاحق في الطريق الدولي. حقائب تحمل ما خف حمله وغلى ثمنه. اتصل كمال بالموبايل بسعيد وأخبره اننا قادمون الى بغداد. قال سعيد انه سينتظرنا في البيت. جذب

انتباهي سيارة شرطة مسرعة تسير أمامنا. الشرطة نادرة في الرمادي بفضل اخوتنا المجاهدين.

كانت سيارة البيك أب مكشوفة، يقف في الخلف شرطي مقنع يصوب مدفعه الرشاش العتيق على الجهات. ما جذب انتباهي وجود جثة في قاع السيارة. كانت القدمان تميسان يمينا وشمالا على ايقاع السيارة. وعلى الوجه ترقد قطعة كارتونية عتيقة. لا بد ان يكون الضحية واحدة من تلك الجثث المجهولة الهوية. هذا هو صباح بغداد اذن؟ نبهت كمال كي يرى الجثة. وكان كمال في عالم آخر فلم يعر الأمر اية اهمية. رأى آلاف الجثث في الحرب العراقية الايرانية. ومع ذلك أكل السندويش حين جاع. أكله بين الجثث.

تجاوزنا ابو غريب والغزالية وحي الشرطة والمنصور، ولا حظت ان بغداد رغم ما فيها من دمار لكنها مكتظة بالسيارات والبشر والدوريات الأميركية والعراقية. المحلات مفتوحة تغص بالمتبضعين. نساء سافرات يمشين في الشوارع. لا يحدث هذا في الرمادي، ولا في البلدة. عبرنا جسر الأعظمية مرورا بساحة عنتر ثم اتجهنا الى الوزيرية وكان الزحام شديدا. أيام دراستي في بغداد كانت الوزيرية عروسا ترفل ببهاء النظافة والنساء والسيارات والمطاعم الفارهة. اليوم تبدو الوزيرية عجوزا خربة. تهدمت اسنانها وشاب شعرها وتطاول نخيلها حتى صار عرضة للكسر. المدن تتبدل. تشيخ مثل البشر. الرمادي شاخت هي الاخرى. العراق كله شاخ. ينبغي ان يموت ليولد عراق آخر. هذه سنة الحياة. لافتات النعي تضاعفت عن السابق. كانت في كل زقاق وشارع. في كل بناية وعمارة ومبنى. انشغلت هنيهات بقراءة

النعوات تلك. كلها تتشابه. الجميع شهداء. الشرطة والمجاهدون والحرس الوطني واللصوص وقطاع الطرق والأطباء والمهندسون ورجال الأعمال. الكل شهداء في هذا البلد.

هل ينبغي لنا أن نشعر بالفخر أم بالعار في هذا البلد، الذي كان ومنذ ثلاثين سنة، سلة للشهداء من كل صنف ونوع؟ سأناقش هذا مع سعيد. سعيد يفلسف الأشياء أبرع مني. لكن هل نحن بحاجة الى فلسفة؟

كمال صامت وأنا أفكر بما سيقوله الدكتور مجيد. يجب علي أن اشفى لكي أواصل حياتي ثانية. لا بد لي من تجاوز هذه الأزمة. هناك أطفال وزوجة وأم بانتظاري. أصبحت رجلهم الوحيد بعد استشهاد أبي على يد الأميركان.

قرب الجامعة المستنصرية راى كمال تجمعا لسيارات الهمر الأميركية التي تقيم حاجزا في شارع فلسطين فتمنى لو يملك قاذفة آر بي جي ليأخذ بثأر ابنه حسن. لكن ما نفع ذلك وقد ذهب حسن دون رجعة؟ ما حدث قد حدث ويجب البحث عن حل. حل لماذا؟ لأي شيء؟ الحياة كلها بانهيار. من أين نبدأ لا اعرف. كل شيء بحاجة الى تجديد في هذا البلد. الطرق والكهرباء والأبنية وشبكات الصرف الصحي وشبكات المياه والمدارس والمستشفيات والأنهار. كل شيء بحاجة الى ترميم حتى البشر. لكن من يبدأ الترميم؟ نحن عاجزون عن ذلك. نحن منهكون.

يقول أخي علي الأميركان هم الحل. يمتلكون السلاح والمال والعقل والتكنولوجيا وكل شيء. لم لا نسمح لهم بترميم البلد؟ لم

نعاملهم على أنهم أعداء لنا؟ نفجر دباباتهم، نقنصهم من بعيد، نقتل من يتاجر معهم، نسمم غذاءهم، نخرب ما يبنونه حتى لو كان انبوبا للنفط. لكن من أجل ماذا يرمم الأميركان البلد لنا؟ كمال على حق. الأميركان لا يفكرون الا بمنافعهم. قبل أسبوع شاهدنا السيارة المفخخة التي انفجرت في ساحة بيروت. كان ذلك في التلفزيون طبعا. وها انا ارى الآثار باقية حتى الآن. الجدران المسودة. بقايا الحديد الخردة عند الرصيف. ورائحة بارود خفيفة استطيع تمييزها في الهواء. هذا كل ما خلفته من اشياء مرئية. اما الجثث التي رأيناها ممزقة فقد تبخرت من المكان. نداءات الخوف والصراخ والنساء المولولات والأطفال الفضوليين الذين اجتمعوا على المشهد لم يعد لهم وجود. الحياة تنطلق مرة أخرى وتمرق من جانب السيارة المفككة، ولا تعير أهمية للنداءات المتلاشية على اشجار الشارع. البكاء الآفل والأسف والحزن والفراق وسيماء الأحبة، لا تجد مستقرا لها سوى في القلب.

العمارات تغص بلوحات الأطباء والمحامين والتجار ومكاتب المقاولات. الأطباء يهاجرون أيضا. اذ بدأت الايادي الخفية تقتلهم يوميا.

صرت أكره الأماكن الطبية. لكثرة ما تناولت من الحبوب واخذت من الأدوية صرت اشعر بالغثيان حين أشم رائحة مستشفى أو عيادة. الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه الا المرضى يقول المثل. هذا مثل صحيح وحكيم. سرنجات. شاش. أمصال. مرنان. مرنان طبقي. تعقيم. فحص مخبري. سكنر. أشعة. قطن. ديتول. كحول. يود. خياطة. قلع. كل تلك الكلمات تصيبني بالغثيان والخوف. شهران تقريبا وانا اتلفف بهذه الاشياء. بعضها يدخل في جسدي وبعضها يخرج

منه. بعضها يشدني الى الأعلى والآخر يجذبني الى الأسفل. أسناني تخلعت. الشظية تستقر في قلبي. في القلب أو الدماغ لا فرق. الشظية المعنوية. وصفني الدكتور ذاكر حين عادني في مستشفى الرمادي بالمومياء. مومياء توت عنخ آمون قال وهو يراني ملقى على سرير المستشفى، لا تبين من وجهي سوى العينين. رائحة النفتالين تهب من مدخل العمارة. رائحة طالما عاقرتها في أيامي الماضيات.

كل هؤلاء مرضى؟ قال كمال ونحن نشاهد الأعداد الغفيرة من الزائرين، وهم خليط من النساء والأطفال والشيوخ. العراقيون كلهم مرضى قال. ومع ذلك يقتلون الاطباء. على أميركا أن تجلب اطباء بدلا من سيارات الهمر والدبابات. الغريب أنني لا أكره الأطباء رغم انزعاجي مما يحيطهم من اجهزة وأمصال. الدكتور مجيد يمتلك وجها مريحا. وجه يبعد الموت أميالا عن الضحية.

تفحص راسي. أدخلني في السونار. قلبني ظهرا وبطنا. وهو يتابع القراءات البيانية والحروف اللاتينية والارقام. قال لي انت بخير. فقط ارفع المعنويات. ازل تلك الشظية المعنوية من جسدك قال. هو الذي اخترع تعبير الشظية المعنوية. سأل عن الدكتور ذاكر وعمله في الرمادي. وراح يتذمر من الحياة هنا. قال ان السيارة المفخخة التي انفجرت في ساحة بيروت كسرت زجاج العيادة كله. لو كانت اقرب عشرة أمتار لاقتلعت العيادة من مكانها. ومن خلال حديثه مع كمال فهمت انه سيغادر الى الأمارات. وجد عقد عمل هناك في احد المستشفيات. مستحيل البقاء هنا. سيمضي كما قال سنة او سنتين عل الأمور تهدأ ثم يعود. ليس هناك أفضل من الوطن. ولكن. وكانت

اللاكن ثقيلة ومتعبة تروي تفاصيل غير مكتوبة تحدث يوميا هنا. وتحدث في الرمادي والبلدة والفرات والصحاري والسماء وفي كل مكان وزاوية وساحة. لكن. لكن الدكتور مجيد مثل لكن أخي سعيد الذي يتحدث هو الآخر عن مغادرة البلد ثانية. ليس هناك مستقر للمرء سوى في بلده، يقول سعيد، ثم يردفها بلكن.

قد لا نرى سعيد مرة أخرى. ربما خاف من مقبرتنا ولا يريد أن يدفن فيها. المقبرة لم تعد آمنة. الأموات هناك يرتجفون من الخوف. صوت الذبابة يزعجهم كثيرا في الليل. أموات ويخافون؟

- قد لا تجدانني حين تأتيان مرة أخرى، قال الدكتور مجيد، لكنني أطمئنكما أن الأمور جيدة. دعوا الدكتور ذاكر يراقب الحالة. المسألة مسألة وقت وتتشافى.

الابتسامة التي سلمها لنا عند باب العيادة كانت، وكما فكرت، تحمل دلالتين: ابتسامة لقتيل لاحق. أو ابتسامة لمهاجر لن يرى البلد ثانية.

◆◆◆

الدكتور مجيد كان زميلا في الكلية لابن خالي ذاكر. وقد تخرج الدكتور ذاكر من كلية الطب في جامعة بغداد، قبل عشر سنوات تقريبا. أصبح أول طبيب في الحامضية. وهذا ما جلب الفخر لخالي ولزوجته صبرية. نال وظيفته في مستشفى الرمادي العام. وكان يذهب صباحا الى المستشفى ويعود في المساء. بعد الحصار اتفق ذاكر مع اثنين من الأطباء في المنطقة على بناء مجمع طبي صغير قرب أسواق الحامضية. وجد الجميع الفكرة رائعة. كل يوم بعد الظهر يصبح

المجمع ملتقى لنساء مريضات وشباب وشيوخ يشكون من ضغط الدم والسكر. كان المجمع يتألف من ردهة واسعة، يجلس فيها المراجعون، وكاتب الأطباء الذي ينظم الدور للمراجعين. وهناك ثلاث غرف، لكل طبيب غرفة. ذاكر يصغرني ببضع سنوات، تخرجت أنا من كلية الاقتصاد في بغداد، قسم المحاسبة. وتخرج هو من كلية الطب. اتجهت أنا الى العمل الحر واتجه هو الى الوظيفة. بدأ خالي ذياب يخاف عليه. فهو يمارس مهمة مزدوجة. يعالج المجاهدين ويعالج ضحاياهم. الأميركان سألوه عن حقيقة الجرحى الذين يعالجهم في المجمع الطبي ويشك فيه المجاهدون كونه يعمل في الدولة. في الآونة الأخيرة صار كل من يعمل في اجهزة الدولة محط اتهام المجاهدين. كلما جئت الى البلدة في الخميس امضي أوقاتا طيبة مع ذاكر في المجمع الطبي. انه سريع البديهية ويحب النكتة ويرويها. كما انه يعرف قصص الحرب الاخيرة جيدا كونه نقطة تصب فيها الحكايات كلها. هو يحتفظ باسرار ايضا. لأنه احيانا يبدأ برواية قصة دون أن يكملها. ذات مساء صيفي زرته في العيادة، وفاجاني بطلب غريب. قال لي اليوم هو الخميس غرق ابن أحمد البارحة اثناء السباحة. جاءني أبوه وطلب مني أن اجد وسيلة لاخراجه من النهر. لم تعد الأمور كما في السابق، حيث صار على الناس معالجة امورها بنفسها. لم يعد هناك شرطة لاخبارهم عن الغريق، ولا دولة تجلب غواصين كما كان يجري في السنين المنصرمة للبحث في النهر. امام عشرات يموتون كل يوم بسبب القتل أو التصفيات من يسأل عن شاب غريق؟ وباعتباري سباحا ماهرا، وغواصا معروفا بالفطرة، استطيع أن اكتم نفسي

تحت الماء اكثر من دقيقتين، طلب مني ذاكر أن نذهب الى المكان لكي نحاول انتشال الجثة. فهو من سيكتب تقريرا بالوفاة بالتالي.

في الحقيقة اصبح ذاكر من وجوه البلدة الذين يساهمون بحل المشاكل، بعد أن انهارت الحكومة وصار كل شخص يعمل ما يحلو له. ابي على سبيل المثال وذاكر ومؤذن الجامع حمادي، وأحيانا أخي كمال، ومختار الحامضية خليل، عادة ما يحاولون بحث المشاكل اليومية التي تعترض حياة السكان هنا. وهم من قرر ترميم المدرسة وتصليح انابيب مجمع تنقية المياه. وهم من نظم جمع التبرعات لأهالي الفلوجة.

لم أجد طلب ذاكر غريبا، وهذا ما نفذناه في اليوم الثاني عند الظهيرة، حيث كانت المياه دافئة، وليس هناك أمواج في النهر. اخبرني ذاكر أن الشاب كان يسبح مع عدد من اقرانه قرب بستان حتوش. وهو كما نعرف مكان مثالي للسباحة. خاصة للمحترفين.

ركبنا بسيارة ذاكر المرسيدس السوداء ونزلنا في الطريق الترابي الذي عادة ما نسلكه حين نأتي مع سعيد والأطفال للسباحة عند القارب. قبل ان نصل البستان اوقفنا السيارة على الجانب الايسر وترجلنا منها في حقل من الذرة. هناك حقول للباميا والطماطم والباذنجان لعوائل آل ساعي. نباتات الحمقاء والشمام تتخلل سيقان الذرة. القبر والدراج يطير من تحت اقدامنا نحو اجمات الحلفاء وأشجار الطرفاء. تصاعد في الأفق الشرقي دخان أسود قال ذاكر انه دخان دبابة اميركية. اصبحت رؤية أي دخان في الأفق ينم عن حادث، تفجير عبوة او هجوم على مدرعة او قصف لطائرة. قبل عشرات السنين

لم تكن الأمور كذلك. كانت الناس تحرق حقول الحنطة المحصودة او الاعشاب الجافة او النفايات. او كان الدخان لمضخة مياه تنفث الكاربون الى الجو.

كنا نشاهد عمود الدخان خلف ذرى النخيل باتجاه مدينة الخالدية. الخالدية اصبحت من المدن الساخنة ايضا. قبل شهر فجر المجاهدون ضريح الشيخ مسعود هناك. المرقد القائم تحت التلة المحاذية لبحيرة الحبانية. منذ طفولتي وانا اشاهد القبة الخضراء للشيخ كلما ذهبنا الى بغداد. كان الذهاب الى بغداد يتم عبر الرمادي وذلك قبل ان يقام الطريق الدولي المحاذي لصحراء الحامضية. مرقد الشيخ حديد القريب من جسر الرمادي دمر بعبوة ناسفة ايضا. يقول المجاهدون ان الأضرحة بدعة لا تمت الى الاسلام بصلة.

ما علاقة الاسلام بضريح شيخ صالح، أو ولي مجهول يرقد هنا منذ مئات السنين؟

مشينا خلال حقل الذرة ومن ثم وقفنا على ضفة الفرات.

ارشدنا ابن عم الغريق على المكان الذي غرق فيه الشاب. انه لا يبعد سوى مئة متر عن بداية بستان حتوش. جرف عال، يبدو انه كان ملائما للتحليق من اليابسة الى الماء في الأسفل. أشر لنا ابن عم الغريق الى فسحة راكدة من الماء تقع تحت الجرف مباشرة وقال غرق هنا كما اخبرنا اصدقاؤه. جلس ذاكر وبعض الصبية الذين جاءوا لمشاهدة الحادث على الجرف ونزعت انا دشداشتي البيضاء. تسللت من بين الشوك والطرفاء النابتة على الجرف الرملي. ثمة عروق ضخمة تنتأ من الجرف. المياه عميقة كما اخمنها. شاهدت ابا الغريق، أحمد

العبد، وأخا الفريق يجلسان قرب الدكتور ذاكر. جاءا مشيا على الأقدام. لامست المياه بابهام رجلي فكان دافئا. حرارة الشمس وركود المياه جعلتاه كذلك. عادة المياه الجارية في النهر بها شيء من البرودة حتى في الصيف. هواية الغوص لم أمارسها منذ سنين. حتى السباحة تركناها الى أن رجع سعيد من الخارج. كنا نعتبرها عبث طفولة ولهو صبيان. كلما تقدمنا في العمر تقل العابنا. كبرنا. اصبحنا آباء لا يليق بنا الذهاب للسباحة.

وقفت على حافة الماء أتأمل الضفة الثانية. اشعر بالخوف. ليس الخوف من الماء ولكن الخوف من المجهول. مما تحت الماء. محمد ماذا بك، صاح علي ذاكر من فوق. انحدرت من الحافة الى المياه الراكدة. كانت غميقة منذ البدء. يبدو أن تيارات تحتية تفعل فعلها في حت الأرض. جدفت بيدي قبل أن اغطس. ابتعدت عدة امتار عن الجرف وانفتحت هوة المياه تحتي. التيار في وسط النهر فقط. استطيع أن اراه من مكاني. سورات الماء تبعد عني كثيرا. تعبر النهر اغصان صغيرة جلبها الماء من الجزر البعيدة. علب من البلاستيك ايضا. خفت أن ارى جثة طافية تعبر في وسط النهر. في الأشهر الاخيرة اخذت الجثث تتكاثر في الفرات. وفي دجلة ايضا كما نسمع في اخبار التلفزيون. كل الجثث هي لقتلى مجهولين. يقتلون ويقذفون الى النهر. من هيت والبغدادي وعنة. من الرمادي ومن قرى الضفاف. كل واحد وله ذريعته في القتل.

حلقت نحلة قرب راسي. شاهدتها تتجه الى الأعلى. ستحط حتما على زهرة باقلاء. او زهرة برسيم لا تبعد كثيرا عن بستان

حتوش. الحيوانات والحشرات والطيور مسالمة. ليس سوانا نحن البشر من يعيث فسادا في هذه الارض. منذ صغري وأنا أخاف من الموت. أخاف هذا العالم الغامض الذي رحل اليه أبي وجدي وجداتي ومعارفي. صار الموت أليفا في هذه السنوات. ليس كما في السابق حيث كان نادرا وله رهبة في القلب. له طقوس واحتفالات وعناوين وكلمات خاصة. من كان يتصور أن أبي سيواجه مصيره بهذه الطريقة؟ من كان يتصور أن المقبرة ستتحول الى منطقة محرمة علينا؟ زيارات الأموات في العيد حذفت من حياتنا. بل اين هو العيد أيضا؟ الم يقتل ابي وحسن ونور وغيرهم في ليلة العيد؟ منذ حادثة النهر تلك وأنا اشاهد الكوابيس وبدأ اليأس يدب في قلبي. فجأة وتتفتح العينان على الحقيقة. وهذا ما حصل لي في تلك الصيفية الكئيبة.

اغطس ياجبان، نادى علي ذاكر بنبرة مزح لا تليق بالموقف. غطست. مياه صافية. عادة افتح عيني لكي ارى قاع النهر في مثل هذه الظروف. الماء سائل ثخين يتغلغل في عيني. ثمة حرقة خفيفة. في الاعلى يشع الضياء القادم من الشمس. لم اعد ابصر اشباح الواقفين والجالسين على جرف النهر. رأيت جذمورا كبيرا لنبتة طرفاء ينتأ من تليل صغير من الرمل. وهناك عروق تميس مع التيار الخفي في الاسفل. جذور ترقص. لم يكن هناك سمك. ذرات ناعمة تشاركني عتمة المياه الخفيفة. اغوص الى الأسفل من جديد. عيناي مفتوحتان. وصلت قاع النهر، بأقل من نصف دقيقة ولامست رجلاي الرمل والطين في القاع. هناك حفر غامضة على جانب الجرف. هناك تليلات من الرمل. وهناك صبة خرسانية ترقد في الأسفل. صبة بحجم متر مكعب تقريبا. لا بد

انها من قواعد مضخات المياه القديمة التي جرفها التيار من بعيد. هل من المعقول انها عبرت الى هنا من الجهة الاخرى التي تكثر فيها المضخات؟ تلمست الصبة وكانت ملساء. تكاثرت عليها اشنات لزجة. كان هناك جذع نخلة عتيق ايضا يغطس نصفه في الرمل. اسود من الماء والاشنات ومرور الزمن. ازحت نفسي عن الصبة وتقدمت ثلاث خطوات نحو عمق النهر.

القاع ساكن. انا والأشنات فقط. سمعت صوت محرك تحت الماء. استغربت وقلت لنفسي ارجو ان لا يكون قاربا اميركيا. منذ مدة بدأت قوارب عسكرية تجول في الفرات من الجسر نحو الفلوجة أو بالعكس. كانت تراقب الشواطئ في الصباح الباكر او عند المساءات. تقدمت باتجاه العمق مرة اخرى. لم اجد اثرا لجثة. ركلت القاع برجلي ركلة قوية ورحت اتغلغل صاعدا نحو النور. بدأ صدري يضيق. انا بحاجة ماسة للهواء. لا اريد الاختناق. ظهر راسي على سطح الماء.

صاح علي ذاكر بصوت عال: هل وجدت شيئا؟ كلا. قلت لذاكر ورايت الخيبة تنتشر على الوجوه. جلست على حافة الماء. وبدأت استعيد هدوئي. قال الأب اذا افترضنا انهم كانوا يسبحون في هذه البقعة فلابد انه حين غرق جرفه التيار باتجاه الشرق. من هذه الحافة قفز قفزة راسية الى الماء ولم يخرج. ما رايك لو ننتقل عشرة امتار الى الشرق؟ قال ذاكر. مشيت في الاسفل وانا اتعربش بالعروق والنباتات الناتئة من الجرف كي لا اسقط الى الماء تحتي. وفي الأعلى مشى الجمع على الجرف مبعدين عنهم اغصان الشوك والحلفاء والطرفاء.

من خلفهم كنت اسمع صوت مؤذن جامع الزبير، حمادي، يؤذن لصلاة الجمعة. صوت اطلاقات نارية نائية من نوع البكتا الاميركية. اصبحنا نميز صوتها من صوت البي كي سي التي عادة ما يستخدمها المجاهدون. كنت أرى عيني أخي علي وهما تشعان بالفرح حين يسمع ذلك الصوت. هذا يعني أن الأميركان مسيطرون. اما حين يسمع صوت البي كي سي فيكفهر وجهه. يقول إنهم الارهابيون من جديد. لا يسميهم مجاهدين إلا في المجالس العامة.

سمعت صوت ذاكر يقول: هنا محمد في هذه البقعة. كانت المياه أقل هدوءا. قلت لهم من مكاني: ستكون هذه الغطسة هي الأخيرة. لم أرد الإعتراف لهم أنه قد يجوز أكلته الأسماك والرفوش. أو جرفه التيار نحو الفلوجة. وربما دفنته الرمال في مكان ما هنا. الرمال التي عايشناها منذ طفولتنا. الرمال التي ظلت مسالمة مع أبنائها مئات السنين. منذ أول بيت أشيد في الحامضية، بل حتى قبل أن يؤسسها جدي وأصحابه قبل أكثر من قرن. كرهت هذه المهمة ولكنني كنت اخشى من جرح مشاعر أبيه وعائلته. الشاب وكان اسمه سلام، لا تربطني معه علاقة ما. فهو من جيل أصغر مني. هو لم يتخرج من السادس الثانوي. رايته مرة أو مرتين، ولا أذكر شكله تماما. أعرف أباه جيدا. كان هو من يعد لنا الذبائح في البلدة أيام الأعياد والمناسبات، ويبيعها على البيوت. أي بمعنى ما تاجر ماشية. كان يتاجر بالبقر والغنم، سواء الى مدينة الرمادي أو يذبحها هنا في البلدة ويبيعها للناس. كان اسمه أحمد ويلقب دائما بالأعرج. هذا قبل أن يفتتح محلا للقصابة، بعد أن سقطت الحكومة وتغيرت أحوال الحامضية. محله لا يبعد كثيرا عن محل عماد.

مشيت نحو المنطقة التي اقترحوها لي. قذفت جسدي مباشرة الى الماء. وغصت كالعادة نحو القاع.

لم أفتح عيني الى أن ارتطمت قدماي في تليلات الرمل المختلطة بالطين. استولى علي رعب حقيقي، فركلت الرمل بقدمي وخرجت الى الهواء. لم أستطع الكلام. ووقفت وسط المياه أحدق في الفراغ. غامت وجوه الجالسين على الجرف. الوجوه تختلط ولا أميزها. ثمة سواد وأشباح تترجرج في نهايات العاقول والشوك والحلفاء. الشمس تصلي الموجودات بشواظها. نيران الفضاء تحني سعف النخيل وأغصان الرمان وأشجار التين. السكون يشبه مقبرة شاسعة. الضفاف التي كانت يوما ما جميلة وساحرة تحولت الى أفخاخ قاتلة وكمائن. الموت يكمن في الضفاف. الموت الذي قال عنه سعيد في مقالته في الجريدة: يلاحق المرء في الشوارع والطرقات، وفي البساتين والأنهار، ويتمدد مثل أصابع شيطانية، ليفرش مجساته على المدن، في هذا البلد المكتوي بالمصائب منذ دهور ودهور.

- ماذا بك محمد؟ تكلم. صاحوا جميعهم علي.

الأعرج نط من مكانه، وكاد أن يسقط في المياه، لولا عكازته التي استند عليها.

- خبرنا لماذا وجهك مخطوف هكذا؟ هل وجدته؟
- غير معقول. صحت بصوت متقطع. هناك مقبرة تحت الماء.
- ماذا تقول؟ سألني ذاكر وعيناه منفتحتان على اتساعهما.
- نعم رأيت جثثا في القاع.

تكومت على الحافة. الرمل رطب وبارد. صعدت ديدان حمراء على فخذي فطردتها بيدي. ثمة لغط في الأعلى. وكنت أنظر الى المياه بحزن شديد. هذا شيء جديد يحصل في البلدة. لا أتذكر أنني شهدت، أو سمعت، حصول أمر مثل هذا حتى في حكايات جداتنا وشيوخنا. أجساد تحت مياه الفرات! ما الذي يجري؟ من قتلهم؟ من أسقطهم في مهاوي المياه هذه؟ ولم اختار الفاعلون هذا المكان؟ ثم من هؤلاء؟

كانت الأسئلة تتوالى في عقلي مثل حبات مسبحة. تكر، وتكر، لتعيدني الى بقعة الماء الصافية التي تطير على سطحها أسراب من الذباب الصيفي. وتبرز فيها بين الحين والآخر سورات مياه صغيرة.

الفرات على حاله، غير عابئ بتلك الجثث. ينحدر من جبال تركيا ويصب في أهوار الجنوب. لحد الآن لم أر شيبا في راسه. لا تتعب عقلك يا محمد قلت لنفسي فنحن نعيش في عهود الظلام. ما فائدة الشركات والعولمة والنظريات والكتب اذا كان الفرات لا يعبأ بأبنائه؟ هكذا تعبر النحلة النهر نحو حقل البرسيم. ابني حسين يخاف من الهاونات. أمي تجلس مع أبي في الحديقة لتنقل له أسرار البلدة. ونور تكنس بقايا جلستنا الليلية مع سعيد وعلي وكمال وحسن وبثينة، فيما تتهاوى الجثث تحت جرف البستان. جثثهم شابة.

الأشياء لها تعبير مخادع. وهذا حال البلد كله.

- هل رأيت سلام يا محمد؟

- لا أعرف. هناك عشرات الأجساد تحت الماء.

- هل سلام من بينهم؟

- ربما نعم، وربما لا. عليّ أن انـزل مـرة أخرى الى المقبرة. المشكلة انـني لا اتـذكر وجـه سـلام جيـدا. بهـذا لا أسـتطيع تمييـزه مـن بـين الآخرين.

- والعمل؟

- أعتقد أنني بحاجة الى صورة شخصية. هل لديكم صورة شخصية لسلام في البيت؟

- نعم.

- سأذهب حالا لاحضارها. قال الدكتور ذاكـر ونهض متجها الى سيارة المرسيدس.

حين سقطت بغداد، وانهارت الدولة في العراق كله، فر جميع الشرطة من مراكزهم ولاذوا الى بيوتهم. ترك رجـال الأمـن دوائـرهم. واختبأوا لدى أقرباء لهم أو عنـد عشـائرهم. وغـادرت وحـدات الجيش ثكناتها بعد أن حل الجيش من قبل الأميركان. لذلك لم يعد في المدن اثـر للسـلطة او لأجهـزة الدولـة. حتـى شـرطة المـرور اسـتبيحت وجلـس افرادها في البيوت. إنني أتذكر تلك الأيام بوضوح. كانت رؤية دبابات اميركية، وجنود شقر ذوي تجهيزات متعددة الأغراض، مشهد غريب علـى عيونـنـا. كـان مثـل معجـزة تحـدث فجـأة. رأينـاهم في الطـرق الخارجيـة، وفي وسـط المحافظـة، وسـائرين في الشـوارع، ويـأكلون الكبـاب في المطـاعم. بل واستقروا في بيـت الـرئيس الـذي بنـاه قـرب الجسر. البيت الفخم الذي استغرق بناءه فترة التسعينات برمتها. وكان أي داخل الى مدينة الرمادي يرى زخارفه وقبابه وأعمدته ورخامه. يرى البحيرة الاصطناعية التي تمتد مـن عتباتـه لتتصـل بـالنهر، امـام بوابـة

جسر الرمادي. في الصيف خاصة، كانت السلطات تغلق مياه الفرات لكي يصبح مستوى الماء ملائما لبحيرة القصر. أما متى يأتي الرئيس الى القصر، ومتى يرحل، فهذا ما لا ندركه نحن العامة. قيل انه يستمتع بأكل سمك الفرات مشويا على الطريقة البغدادية. وقيل إن القائمين على القصر يعدون غداء للرئيس كل يوم، سواء حضر أم لم يحضر. فهم لا يعرفون متى يحط في قصره، في أي يوم وفي أي ساعة. الذين دخلوا الى القصر من البلدة بعد أن سقط الحكومة واحتلت القوات الأميركية المكان، تحدثوا عن رياش أسطوري. الثريات الكرستالية والأبواب المذهبة، والممرات الناعمة التي تشبه المرايا. وتحدثوا عن المسابح الداخلية، ومواقد الشوي التي يتم فيها شي لحوم الغزلان والسمك والخرفان الرضيعة التي يتم جلبها من بدو الجزيرة. البعض فرحوا بما آل اليه مصير القصر. قالوا هذه نهاية الظالمين. عدوه يستولي على بيته. وقال البعض الآخر، هناك تواطؤ بين الأميركان والرئيس. لقد بنى تلك القصور وهو على علم بأنهم سيأتون ذات يوم ويستقرون فيها. وهناك من غضب لهذه الإهانة الكبيرة التي سيتكلم عنها التاريخ. إهانة لا تعني الرئيس وحاشيته فقط، بل تشمل العرب جميعا. ليس العراقيين فقط بل كل العرب. وقائل يضيف بل المسلمين جميعا.

تحول البعثيون في بلدة الحامضية الى مسخرة من الكارهين لهم سابقا. كانوا يقولون لهم إنكم حتى لم تدافعوا عن قصر رئيسكم. ذات مساء، وفي فاتحة الحاجة قمراء، الزوجة الأولى لخالي الكبير حماد، تكلم أحد المسؤولين السابقين في الحزب، وهو

قريب لنا يقطن في الشامية، أي الجهة المقابلة لنا على الفرات. قال عواد، المسؤول السابق بغضب: وكان الحديث يدور حول سقوط النظام والاحتلال وتخاذل الجيش والحزبيين: اليوم يجلس البسطال الأميركي فوق راس كل فرد من الشعب. صمت الحضور وهم يستشعرون بالاهانة المبطنة في كلام عواد. فما كان من خالي ذياب، ابو الدكتور ذاكر الا ان رد عليه بغضب اكبر. كلا يا عواد. البسطال الأميركي فوق رأس كل بعثي. وهذا ما زاد التوتر على جلسة المأتم، فما كان من عواد الا النهوض ومغادرة المأتم.

الى ذلك القصر الذي صار يدعى بالقاعدة الأميركية يوجه المجاهدون صواريخهم الكاتيوشا، وهاوناتهم، في المساءات أو عند الأفجار، حين يطل النور من خلف البساتين. أو حين يكون في طريقه الى التلاشي. بعد أشهر قليلة من وصول الأميركان طلبوا من جميع الشرطة السابقة الرجوع الى مراكزهم، خاصة أصحاب الرتب الصغيرة. كما فتحوا باب التوظيف لمن يرغب بالتطوع من الشباب في سلك الجيش والحرس الوطني وشرطة المرور. وكانت الرواتب مغرية. عشرة أضعاف ما كانوا يتقاضونه في السابق. ويقبضون الراتب بالدولار. كان اغراء كبيرا. كما تعاقد الجيش الأميركي مع مقاولين، وعمال فنيين، وأجراء، لتنفيذ أعمال داخل معسكراتهم وقواعدهم ودوائرهم التي كان قسم منها يحتل نفس الدوائر القديمة. المحافظة، والبلدية، والمستشفى العام الذي يخدم فيه الدكتور ذاكر، ومديرية السفر والجنسية، وغيرها من المرافق العامة. كان ليث بن طالب من بين العاملين معهم. لكن لم يمض وقت طويل حتى

بدأ بعض الشباب يختفي عن الأنظار. من بلدتنا اختفى ملازم أول شرطة دون أن يعثر له على أثر حتى اليوم. واختطف أحد الشرطة الجدد، ووجدوه مقتولا تحت قنطرة قرب الجسر. وهدد العقيد حماد، إن هو استمر بوظيفته في الجيش الجديد، من قبل أشخاص ملثمين جاءوا الى بيته في الغروب. والعقيد حماد هو ابن عم عماد صاحب البقالية. وهو معروف بدماثة خلقه، وتقديم المساعدة لأبناء البلدة حتى قبل سقوط الدولة. قالوا له نحن مجاهدون. ولك يومان فقط لكي تقدم استقالتك. وأعذر من انذر. بعدها باسبوع وجدنا جثة شاب من القرية المجاورة مطروحة على الطريق، قرب بستان علي النجرس. وعليها منشور يؤكد أن الشاب كان عميلا للأميركان. مثل هذه الأعمال بدأت تنتشر كثيرا في قرى وبلدات الرمادي، مما أدخل الرعب في صدور الجميع. وعرفنا أن هناك تنظيمات، وحركات، راحت تقاوم الأميركان والشرطة والحرس الوطني، ولا تؤيد الحكومة الجديدة في بغداد.

كانوا يريدونها حربا شاملة مع الجيوش الأجنبية ومع الوزارات الجديدة والموظفين والطلاب وشرطة المرور والأطباء. بهذا صرنا جميعا مهددين. ثم دارت الاشاعات والحكايات عن بستان حتوش من انه أصبح وكرا لأولئك المجاهدين. يجتمعون فيه ليلا. ويخبئون الأسلحة، ويحققون مع المشتبه بهم بعد اختطافهم. الحكايات حين تتجمع من اكثر من مصدر، سرعان ما تصنع أسطورة. أسطورة المجاهدين صنعها دكتور ذاكر، ونجاة زوجة كمال، والمؤذن حمادي، وأمي التي كانت تلتقط تلك الحكايات من المآتم والأعراس والزيارات التي

تقوم بها لبعض العوائل في الحامضية. وكانت تقصها لأبي حين يجلسان في الحديقة، أو في صالة الضيوف في الصباحات.

أظن أن لهؤلاء النائمين تحت الماء علاقة ببستان حتوش. أظن انهم يجهلون ما يجري في البلد من تحولات. ومثلما قال الدكتور ذاكر نحن لا نرى من جبل الجليد سوى قمته الصغيرة. أي أن القادم أعظم. جبل الجليد الغاطس وكما فكرت في كلام الدكتور ذاكر هو الهجرات والفرار الى بلدان آمنة وتفجير الأماكن التاريخية والقتل على الهوية هوية المدينة والدين والمذهب والطائفة، وتشكيل عصابات تتقاتل فيما بينها، وتقسيم الوطن الى حكومات محلية لا يربطها رابط، وتعطيل المدارس وتخريب المستشفيات، وتحويل الموت الى مزحة سمجة، وزرع الشظايا المعنوية في قلوب الناس وعقولهم وأعضائهم التناسلية، ونهب النفط وبيع الحديد خردة، والسطو على البنوك، وتسليب السيارات، ولذة تفجير السيارات في الحشود، ورش البشر بالسموم، وقطع الكهرباء، وتلويث الجو، وتسميم الأنهار، الى أن يصبح الفرد كائنا دائخا، الى أن يصبح حيوانا بامتياز. سأسأل الدكتور ذاكر ان كان هذا ما قصده بجبل الجليد الغاطس في الماء؟ هذا أم غيره؟

هناك أحداث راحت تجري، حتى في الحامضية، تبعث على الخوف والرعب.

- رجع دكتور ذاكر. هتف أحمد الأعرج من مكانه فأخرجني من تأملاتي الشائكة.

- سأصعد اليكم حالا.

قلت وأنا أزيح غصينات الحلفاء المتدلية من الجرف. رأيت غبار الطريق يتصاعد بخفة الينا. الغبار ينفرش على النباتات المحاذية للنهر. وصل ذاكر وكان مكفهر الوجه، جادا أكثر من أيما وقت رأيته فيه. ناولني صورة صغيرة لسلام. الدمع في عيني أبيه لمحته بسرعة خاطفة. كان منكس الرأس، يحرث الأرض بغصن صفصاف نحيل. الصورة ربما أخذت ذات يوم لإجراء معاملة، أو لإصدار جواز سفر، أو كانت معدة لكي تقدم ضمن أوراق دخول الجامعة. شاب أسمر، وجهه مستدير بعض الشيء، وعيناه صغيرتان، تنفذان الى الشخص المقابل. حدقت فيها ثم أغمضت عيني برهة. كنت أريد ان أحفظ تلك الملامح جيدا. كررت العملية ثلاث مرات. ها أنذا أحمل سمات هذا الشاب في داخلي. لا بد أنها تنتظرني هناك في الأسفل. لا يمكن أن يكون قد غادر مكان غرقه. في هذه الأثناء توافد مزيد من الرجال والصبيان الى المكان. لقد أخبر ذاكر كل من التقاه في سوق البلدة، أو لدى بيت أحمد الأعرج عن اكتشاف مقبرة لبشر تحت الماء. كان أبي وخالي ذياب من بين الحضور. شاهدت ابن أخي، حسن، يحدق الي باعجاب وهو يقف بين الصبية المتجمعين على الجرف محدقين الى سورات الماء المتلاصفة تحت الشمس، وكأنه يقول انظروا الى عمي البطل. سباح البلدة والضفاف كلها من الورار حتى جسر الفلوجة القديم.

شعرت بالخجل وأنا أقف بين الجميع عاريا الا من سروالي الداخلي الأبيض الذي خاطته لي لمياء.

عدت الى النهر مجددا. ما ينبغي عمله ينبغي عمله. حتى بهذا الشعور الذي ملأني بالرهبة والخوف. جرجرت خطاي الى الأسفل. قفزت بقوة الى الماء. ينبغي التحلي بالقوة والصبر. كل يوم أكتشف مرتكزات قوة لم اعرفها سابقا في داخلي.

رجعت الى القاع وأنا أحفظ ملامح سلام جيدا. أكيد أن بقاءه في المياه غير ملامحه. لكنني لن أخطئ التقاسيم التي حفظتها من الصورة. الجثث مبعثرة في مساحة أكثر من مئة متر مربع. وقد تجمعت في ما يشبه المنخفض. أعتقد انه السبب الذي جعلها لا تغادر المكان. عليّ أن أعمل بسرعة. الوجوه عليها تعابير رعب. ملوثة بالرمال وجذور السعد والأشنات. الجثة الأولى لما يزل في رقبتها خيط من البلاستك. يبدو أن القاتل، أو القتلة، خنقوه بذلك الخيط. رايت جثة محزوزة الرقبة يتجمع في الجرح الغائر طين وعروق ناعمة. جثة في رأسها اطلاقات نارية. تعثرت برأس آخر وآخر وآخر. أريد جثة سالمة. فسلام لم يمت اغتيالا. لهذا فجثته ستبقى سليمة من الجروح والطلقات. في الآونة الأخيرة شاع الذبح للبشر كعقاب على العمالة، أو مخالفة الرأي، أو العمل مع الحكومة الجديدة. كل من يصبح أميرا يقدم انجازا بذبح عشرة من المرتدين والكفرة والعملاء. هذا ما كنا نراه في الفضائيات. جارنا ابن وضحة الحماد صار أميرا. قالت نجاة زوجة كمال انها رأت الدماء تسيل من صندوق السيارة حين كان ينظفها جنب الساقية. كان اسماعيل شابا دمثا قبل الحرب. انهى اعدادية الصناعة وعمل في محل للنجارة في الرمادي. الحرب التي دمرت المدينة افقدته عمله فجلس عاطلا في البيت. قيل انه انتسب الى المجاهدين

بسبب المال. فهو يحظى بمئتي دولار اثر كل عملية، وقيل اكثر. قيل ايضا انه اصبح زعيما محليا بعد ان ذبح عددا من العملاء.

كنت أحدق في الوجوه بقلق وسرعة. بدأ الهواء يقل في رئتي. قبل ان اقلب جسدا عالقا بعرق غليظ، راودتني رغبة مفاجئة للقفز الى السطح. ها هو وجه سلام أخيرا. ثمة كدمة في الراس. ربما هي التي سببت غرقه. امسكت به من بقايا ملابسه ودفرت الرمال بقدم صلبة. خفت ان امسكه من يده. قد تتمزق بسبب الماء. مرت ثلاثة أيام على غرق سلام. نبغت قرب الحافة وانا أجرجر سلاما ورائي الى أن ركمت جسده على رمال الضفة. بدأ أحمد ينوح ويلطم وجهه ويحثي التراب على راسه. المشهد أليم للغاية. وأخذ الحاضرون يكبرون ويهمهمون بآيات قرآنية. لكن الجميع آمن بالقدر، وأن ما حدث هو قسمة من الله. الحمد لله انه مات موتا طبيعيا قال أبوه. على الأقل ظل محتفظا برأسه.

نزل ذاكر معي ونزل شباب آخرون وحملوا الجثة الى فوق.

طلب ذاكر من أحد الشباب احضار بطانية من البيت القريب.

- هناك جثث عديدة في الأسفل. بعضهم بملابس شرطة وبعضهم بالسراويل الداخلية. شاهدت قسما مقتولا باطلاقات نارية وقسما بالخنق أو التقطيع.

- هؤلاء ضحايا الأميركان. هم من قتلهم ورماهم في النهر. قبل يومين حدثني الراعي خالد أنه شاهد قاربا اميركيا يرمي جثثا في هذه المنطقة.

- اخي لماذا لا تصمت؟ هؤلاء لم يقتلهم الأميركان. انهم المجاهدون. الم نر كيف يذبحون المختطفين بالسكين على شاشات التلفزيون؟ هل تعتقد أننا لا نملك عقولا؟

- على كل يجب أن نقوم بإخراجهم. هناك كثير من المختطفين الذين انقطعت أخبارهم عن عوائلهم. يجب إخبار تلك العوائل بالأمر.

- بالنسبة لي لن أقوم بإخراج أحد. لم أعد أمتلك الرغبة بالقيام بهذا العمل. جدوا شخصا غيري.

قلت للجميع باصرار.

فعلا ما شاهدته من مناظر بعث الدوار في رأسي. احسست أن الحياة في بلدنا لم تعد تطاق. كيف نصل الى هذا الدرك من العنف والقسوة. أنظر الى الوجوه المحيطة بي بقرف. أحسست وكأنهم شاركوا القتلة بالجرم. لبست دشداشتي حتى دون أن انظف جسدي من بقايا الرمال. ودون أن أنتعل حذائي، حملته بيدي. وسرت وراء الجماعة وهي تحمل جسد سلام ببطانية عتيقة. اتجهنا الى الجامع سيرا. وكانت بيوت الحامضية تحدق بنا بخوف. النساء يقفن أمام الأبواب. والصبيان ركضوا نحونا، وساروا خلف الركب بذهول. وكانت بعض السيارات التي تمر في شارع البلدة تتوقف لتسأل عن الحادث. الجميع كان يسأل عن اسم القتيل. وحين نخبرهم أنه غريق يتنفسون الصعداء ثم يواصلون مسيرهم.

قرر أبوه وخالي ذياب وأبي والدكتور ذاكر أن يوضع في الجامع ويصلى عليه ثم يدفن غدا صباحا. ليس من الحكمة وضعه في بيتهم. وهكذا جلس المعزون في صالة المآتم، وانتدب اثنان من الشيوخ

لغسله في غرفة الميضأة وتجهيز الكفن له. أصبح حديث الحاضرين لا عن سلام وغرقه، فهذا أمر يحدث كثيرا في البلدة، إنما عن الجثث التي ظلت هناك تحت الماء. البعض استفسر مني عن هيئة الأموات هل هم غرباء، بمعنى هل يشبهون الأميركان؟ لقد شاعت حكاية في بلدتنا من أن كثيرا من الجنود الأميركان التحقوا بالجيش لكي يحصلوا على الجنسية الأميركية. لذلك فالمسؤولون لا يعتبرونهم من ضحايا الحرب. يغرقونهم في الأنهار، أو يتخلصون منهم في البراري البعيدة لكي لا يحسبوا على عدد الضحايا.

كانت هناك حكايات وقصص غريبة من هذا النوع. بدأت بعض النسوة في البلدة يتقززن من شرب المياه. يعتقدن انها ملوثة بجيف الجنود الكفرة. السود منهم خاصة. طبعا أكيد، فكثير من الناس شاهدوهم وهم يرمون قتلاهم في النهر. كن يتحدثن هكذا بكل ثقة. أكدت لسائلي الكهل أنهم من مناطقنا. وأكدت له أيضا أن وجوههم لا تبعد عن وجوه أبناء قرى الفرات هذه. أستطيع أن أميز وجوه جماعتنا من وجوه الأجانب. بدأت أحس بالضيق من أسئلة الحاضرين ومن الحوارات التي كانت تدور في صالة المأتم.

شربت فنجاني قهوة مرة ودخنت كثيرا من السجائر. قلت لأبي انني ذاهب الى البيت. قال حاول ان ترتاح هذا اليوم. تركت القاعة والحاضرين ورائحة القهوة والحشود التي بدأت تتقاطر الى الجامع ومضيت الى البيت. نمت مباشرة ولم افق الا على صوت لمياء وهي تخبرني أن ذاكر يود الحديث معي. لم اكن احس بالجوع. ولا بالعطش رغم ان الوقت صيف والجو ساخن. في ليل الحديقة ذاك

اخبرني ذاكر باغرب ما سمعت في حياتي. كان ابي يجلس ايضا على كرسيه المعتاد. لحيته البيضاء تتلألأ مثل الثلج في ليل الحامضية الطويل. قال لي ذاكر ان المجاهدين سمعوا بقضية الجثث تحت الماء التي ذكرتها انت. انهم يحذرونك من اخراجها من النهر اولا. والشيء الثاني الذي طلبوا مني ايصاله لك هو أن تكذب الرواية. تعتبر نفسك أنك لم تر شيئا من هذا القبيل. يعتبرون ان القتلى لم يكونوا سوى عملاء وملحدين ومرتدين، لذلك لن ينتظروا مصيرا افضل من هذا المصير. قال لي ذاكر انه تفحص رأس سلام ويعتقد انه ارتطم بشيء قاس حين قذف نفسه من الجرف الى الماء. اخبرته بالصبة الخرسانية التي كانت في الاسفل.

قال ابي ان ذلك المكان كان فيه مضخة مياه عتيقة من أيام شبابه. وقد أكل التيار موقعها وتهاوت الى النهر. اذن هي ما ارتطم رأس سلام به اثناء القفز. يبدو ان الاصطدام افقده وعيه فجأة ففرق.

قبل أن أعود الى غرفة النوم مجددا، بعد ذهاب ذاكر الى بيته، قال لي ابي بصوت جاد وعميق:

- خذ كلام هؤلاء بجدية. إنهم قتلة من الطراز الأول. كانوا حزبيين أيام صدام حسين. وتحولوا اليوم الى مجاهدين. وهم لا يتورعون عن ذبح كل من يقف في طريقهم. الحكومة العراقية الجديدة غبية وكذلك الأميركان. طموحهم هو السيطرة على الأوضاع وتأسيس نظام جديد. دون القضاء على البعثيين برمتهم لا يمكن أن يستقر العراق. تسمع عن القاعدة، وعن الجيش الاسلامي، وعن هذا، وعن ذاك. لكن أقول لك بصدق: كل تلك التسميات

وراءها البعثيون. أنا أعرفهم جيدا. عاصرت حكم الملوك، وعبد الكريم قاسم، واشتغلت مع الانكليز، وشاهدت عبد السلام عارف حين انقلب على البعثيين، ثم عشت الفترة التي جاء بها البعثيون في نهاية الستينيات وأصبحوا حكام البلد حتى اجتاحنا الأميركان. البعثيون دائما يحاولون الرجوع الى الحكم. تحت هذه التسمية أو تلك. قاعدة ماعدة، جيش اسلامي، جيش محمد، كتائب ثورة العشرين، كلها تسميات لمعنى واحد هو حزب البعث. يحاولون العودة الى السلطة. ويمكنهم عمل كل شيء من أجل ذلك. لهذا أعتقد أن عليك مجاراتهم، وستنفي أنك رأيت شيئا هناك تحت الماء. لا يريدون أن يؤلبوا عليهم أبناء العشائر. لم يبق هناك عشيرة في قرى الفرات لم يذبحوا لها ابنا. تحت هذه الحجة أو تلك. الأميركان أرحم منهم. قم الى فراشك وحاول نسيان كل ما مر بك هذا اليوم. ولنر ما سوف تأتي به الأيام القادمة.

قال أخي سعيد، بعد أن عاد الينا سالما والتقى أحمد الأعرج في بيتنا، إن التطور لامس البلدة في كل تفاصيلها، بما في ذلك عكازة أحمد. فعلا استبدل عكازته الخشب، التي كان يصنعها من خشب الصفصاف بعكازة طبية مصنوعة من الألمنيوم والمطاط. اشتراها له الدكتور ذاكر، بعد تخرجه من الكلية وحصوله على وظيفة طبيب في مستشفى الرمادي. اشتراها ذاكر من محل يقع في شارع الرشيد. فالحرب العراقية الايرانية انتجت ملايين المعوقين، وهذا ما جعل من تجارة العكاكيز، والكراسي المتحركة، والأعضاء الاصطناعية،

تزدهر في كل المحافظات. أحمد لم يكن معوق حرب، لكنه استفاد من ثمار الحرب تلك.

أتذكر أنني ومنذ وعيت على الحياة في البلدة وأحمد هكذا لم يتغير. اللهم الا عكازته ولحيته التي اطلقها أثناء احتلال الكويت، وأخذ الشيب يدب فيها. كان شخصا موجودا في كل مكان. كما لو أنه خلق في اللحظة ذاتها التي ولدت فيها الحامضية. يجده المرء أمامه مثل الهواء. في الدروب الضيقة. في الحقول. في الدكاكين. في الباص الراحل الى الرمادي صباحا والراجع الى الحامضية ظهرا. عند فسحات البيوت. وفي تجمعات الرجال في الليل حين يقضون ساعات العتمة يقصون عن شؤون حياتهم وذكريات الأيام البعيدة في الحامضية وشخوصها الذين ماتوا منذ زمان. كان شخصا يحبه الجميع وفي الآن ذاته لا يفتقده أحد. حتى اصبح أرشيفا للبلدة. اشتغل احمد في أكثر من عمل، ولكن ابرز تلك الأعمال التي مارسها، وأتذكرها جيدا، هي التجارة بالبقر والعجول، وقصابتها في بعض الأوقات. كان يتجول في بيوت البلدة مراقبا البقرة التي تولد والبقرة التي لم تعد نافعة. يجلس عند هذه المرأة أو تلك، يسألها عن عدد سطول الحليب التي تنتجها البقرة وكم مولودا وضعت اثناء حياتها. وحين يشم أن امرأة لم تعد ترغب ببقرتها اكثر يطرح عليها سعرا مخفضا ثم يبدأ معها المساومة. لا يتفق في اليوم ذاته بعض الاحيان فيترك الأمر الى وقت آخر. ويمضي الى فلاح سمن عجله ويرغب ببيعه. يبدأ معه المساومة ذاتها. وعادة ما يلجأ الفلاح الى بيع بقرته أو عجله ما أن يشعر بضائقة مالية، كان يريد أن يشتري لابنائه ملابس في

الفصل الدراسي الجديد أو في الأعياد، أو حين يرغب بتزويج ابنه. أو أحيانا حين يفكر بتجديد بيته الطيني أو اضافة غرفة جديدة للبيت.

حين تطل الأعياد على البلدة يختار أحمد عجلا سمينا من العجول التي اشتراها ويذبحه في باحة دارهم، وكان أحمد يعيش مع امه وأخته فقط، ثم يبعث شخصا يجول بين البيوت لكي يخبرهم بوجود الذبيحة. تمر ساعة فيجتمع لديه عشرات من الراغبين بشراء اللحم. أطفال ونساء ورجال يحملون الصحون والقدور والأكياس الجنفاصية، وكل يسجل مقدار ما يريد شراءه حسب القدرة المالية وحسب عدد نفوس العائلة. يبيع الرأس والأمعاء والكرشة التي تتقاسمها بعض البيوت اليسيرة الحال. وفي يوم مثل ذاك يمكن لمن يسير في طرقات الحامضية غروبا ان يشم روائح اللحم وهي تنطلق من القدور وتتسلل الى الأنوف فيعتقد ان المنطقة لديها احتفال عام. وكان اكل اللحم احتفالا بحق. اللحم الذي لم نكن نتذوقه الا حين يموت شخص او يتزوج شاب أو في الاعياد. وحين يتجمع لدى احمد عدد من الابقار والعجول لا يستطيع بيعها داخل القرية، او لا يذبحها، يقوم صباحا بأخذها في باص القرية الى سوق الماشية في الرمادي. يضع الدابة وكالعادة في الحوض الخلفي للباص الخشب، ويجلس قربه ماسكا برباطه.

وكثيرا ما رأيت احمد على هذه الحال وهو يجلس في الخلف، ويده ممسكة بحبل غليظ من القنب، يمص سيجارته اللف بلذة.

عكازة أحمد الخشبية كانت تدك الطرق ليلا نهارا. أصبحت بـلا صـوت بعـد أن تحولـت الى الألمنيـوم والمطـاط. وبعـد أن تحولـت الحامضية من قرية الى بلدة.

احمد اكبر قليلا من أخي سعيد.

في أيام طفولتي كنت عادة ما أراهم يذهبون الى دكان عواد، القريـب مـن مدرسـتنا. وهنـاك يجلسـون الى تخـوت الخشـب يلعبـون الدومينو ويحتسون قناني البيبسي والكولا والسينالكو. حمادي قبل ان يتزوج اختي، وأحمد الأعرج واخي سعيد وأخي علي ووسيم الأحدب وغيرهم. يذهبون منذ الظهيرة الى الدكان ولا يرجعون الا حين تغيب الشمس. في الصيف عادة تصبح الفسحة التي امام دكان عواد ملاذا لأغلب شباب البلدة. والدكان لا يبعد الا مئة متر عن مدرسة المعرفة. كان احمد لا عبا ماهرا في الدومينو، نادرا ما يخسر الرهان. ورهانهم معروف. دورة بيبسي كولا او كيلو من الحلقوم، كثيرا ما كان يصيبنا بعضا منه حين كنا نرافق اخي سعيد وأخي علي ونجلس على الأرض منتظرين توزيع الرهان نهاية الجولة.

كان أحمد لا يلفت النظر الا بعكازيه. اما ما عدا ذلك فهو جـزء مـن حيـاة البلـدة الرتيبـة، قبـل أن تـأتي الحـروب والهجـرات والأحزاب. حادثة واحدة هي التي سلطت الضوء على أحمد وجعلته شخصـا يـثير الشـك حولـه، ويحولـه الى انسـان غـامض خاصـة بـين الأطفال من امثالنا. كان شعر أحمد فاحم عادة ما يمشطه بعناية ويضع عليه البريل كريم فيأخذ باللمعان، ويضع نظارة سوداء ويرتدي دشداشة بيضاء تكشف عن لباسه الداخلي الابيض الذي يصل الى

ركبتيه، ويرش عطر الريف دور على جسده ويخرج ناطا على عكازه بين البيوت يحتسي الشاي في بيت ما ثم يدردش قليلا، ويمضي الى درب آخر متجها الى رؤية عجل سمين يخطط لذبحه في البيت.

كان بيت تركي المكون من غرفة واحدة لا يبعد سوى دقيقتين من بيت أحمد. وتركي سائق شاحنة لنقل الصخور من مقالع هيت وما حولها الى قرى الفرات. في السبعينيات بدأت القرى تغير بيوتها من الطين الى الصخور، وبطرز حديثة نسبيا. لذلك كان تركي اغلب الأحيان خارج البيت.

ولتركي زوجة جميلة هي ابنة عمه مدّانة. تزوجها قبل سنة من الحادث وبنى لها غرفة صغيرة في ارضه وبدأ حياة زوجية مستقرة. كان لدى مدانة بقرة وعجلا صغيرا تربطهما في الفسحة التي امام الغرفة. ذات يوم كما سمعنا القصة رجع تركي بغتة في ظهيرة صيفية ساخنة الى بيته. تعطلت سيارته قريبا من بستان علي النجرس فتركها هناك ووصل ماشيا الى البلدة. وحين فتح الباب كما يقول الرواة وجد احمد الاعرج نائما فوق زوجته مدانة وهو يطلق اصواتا حيوانية تشبه خوار العجول. طبعا تسلل احمد قفزا ولبد في بيته. وقيل انه سافر في ذات اللحظة الى اخواله القاطنين في الشامية. اختفى اكثر من شهر عن البلدة. خلال هذا الشهر سويت القضية على النحو التالي. في الليل نفسه جلب تركي مسدسا من احد اقاربه وعاد الى مدانة التي ظلت حبيسة الغرفة ثم قتلها بمشط كامل من الرصاص. ذهب الى عمه كردي واخبره بالقصة بحذافيرها. جاءت عائلة مدانة واخذتها بدمائها

الى بيتهم ثم غسلوها على عجل وحملوها في الفجر الى مقبرة الحامضية دون ان يحس بهم احد.

طبعا الاطلاقات التي ثارت في بيت تركي لم تلبث ان أشاعت الحادث في كل أذن وفم.

راحت القصص والتقولات تنسج على هواها.

وفي صباح اليوم التالي ذهب تركي الى مخفر أبو عبيد وأخبرهم بالقضية كلها، فنقل على الفور الى الرمادي ثم حكم عليه خمس سنوات فقط باعتبار القضية قضية شرف. قام كردي، أبو مدانة، بجلب شاحنة وحمل أغراض بيته وغادر الى جهة مجهولة. أما قصة مدانة وأحمد فظلت طافية على السطح لمدة أسابيع ثم اختفت ايضا. فأحمد وبعد رجوعه أنكر كل شيء. قال إنه كان جالسا معها فقط يساومها حول بقرتها، وكان يعتبرها مثل أخته. لكن الشك لعنه الله هو الذي قتل تلك المسكينة كما كان يردد في كل مكان. بعد تلك الحادثة انكمش أحمد على نفسه وترك مهنة تجارة البقر، ولم تمر سوى سنة حتى وجد له شابة يتيمة من أطراف البلدة، قبيحة الشكل صغيرة الحجم وتزوجها، ثم اشترى تراكتورا للحراثة ووضع فيه سائقا وجلس هو في البيت. وتلك القبيحة الضئيلة الجسد ولدت له خلال بضع سنوات ثلاث صبيان وبنت جميلة. أكبرهم سلام الذي غرق في الفرات. صار يصوم ويصلي ويرتدي غترة بيضاء وكف عن وضع نظارات سوداء أو التعطر بالبريل كريم. صار نادرا ما يخرج الى بيوت القرية اللهم الا حين يتعقب مستحقاته على الفلاحين، ثمن حرث قطعة أرض أو تعديل أو نقل الحبوب من البيادر الى المخازن. وكل تلك السنوات

كانت صورة غامضة عن أحمد بالنسبة لي، اذ كنت خلالها طفلا صغيرا ابتدأ للتو دراسته في مدرسة المعرفة الابتدائية. توضحت صورة احمد لي حين كبرت وصرت شابا، وقد اشترى احمد مطحنة نصبها في بستاننا القريب من الجامع. وهو المكان الذي تطل عليه دكاكين السوق اليوم. وقد زال البستان بعد أن تمددت اليه بيوت الاجيال الجديدة في الحامضية، الا انها كانت محورا من محاور حياتنا. كانت أول مطحنة تشتغل بالكهرباء. وتقع وسط الحامضية تقريبا. قريبا من الشارع العام. في الماضي كانت هناك مطحنة قريبة من بستان حتوش، وهي منصوبة على مضخة المياه. يمتلكها مختار القرية الملا خضر. وتلك المضخة تشتغل بالنفط الاسود، ولذلك كان طحين البلدة عادة ما يحمل رائحة نفط خفيفة. بعد ان دخلت الكهرباء، انتهت حياة مضخات النفط وحل محلها مضخات تشتغل على الكهرباء. اعتقد أن الصبة الكونكريتية، التي كانت مضخة الملا خضر تستند عليها، هي التي قتلت ابن احمد، سلام. فبعد سنوات من بقائها ثابتة على جرف تآكلت الارض تحتها ثم تهاوت في النهر.

حدث ذلك قبل سنين طويلة. قبل الحرب العراقية الايرانية على وجه التحديد.

كانت مطحنة احمد نقطة جذب للشباب. يجتمعون تحت النخيل ويراقبون صبايا القرية وهن يجلبن القمح للطحن. بعضهم يقدم المساعدة وبعضهم يتسلى بالنظر والدرشة. وقد حدثت عدة زيجات بسبب المطحنة. عبيد صديق أخي سعيد كان واحدا من ضحايا المطحنة. فهو قد تزوج ابنة احمد الاعرج الشابة الجميلة التي طالما

تعجب اهل البلدة من جمالها رغم ان ابيها احمد لا يمت الى الجمال بصلة وامها سعدة الصغيرة مثل جرادة. لكن، لله في خلقه شؤون، كما كان الجميع يردد. كانت تأتي يوميا تقريبا مع ابيها الى المطحنة. تساعده في سكب القمح في عين المطحنة، وترتيب أكياس القمح والطحين، وخياطة الأكياس بالابرة الكبيرة والخيوط الجنفاصية السئلي. وكان عبيد طالبا في جامعة البصرة. يدرس في كلية الزراعة. في الصيف خاصة يأتي مع أخي سعيد، الذي يدرس الهندسة، وشباب آخرون. يجلسون قرب المطحنة، يتسلون بالنظر الى الفتيات، او يمازحون أحمد الأعرج متذكرين أيام الدومينو، والحلقوم، والسينالكو، ودكان المرحوم عواد، الذي مات بالسل، ومدرسة المعرفة التي نقلت الى الجانب الغربي من البلدة، بعد أن شيدت لها الحكومة بناء واسعا من طابقين. وحولتها من مدرسة ابتدائية الى اعدادية مركزية للبلدة، وقرى الجوار.

في عرس عبيد رقص أخي سعيد على صوت الطبل، واشترك بالدبكة، واطلق الرصاص من بندقية البرنو التي كنا نمتلكها قبل ان يبيعها ابي ويشتري مسدسا نمرة تسعة. وظل ذلك العرس ذكرى لم تمح من اذهاننا بعد أن غادرنا سعيد الى المجهول. كان احمد كلما دار الحديث عن سعيد، يعيد ذكرى ذلك العرس وكيف كان يرقص الدبكة ويصفق مع النساء والشباب ابتهاجا بعرس عبيد صديقه. العرس والمطحنة هذا ما كان احمد يتكلم عنه كلما دار الحديث في بيتنا عن سعيد. وكان ابي يجلب احمد معه للغداء بعد صلاة الجمعة حين اكتمل جامع الزبير وصارت تقام فيه خطبة

الجمعة. بعد سنين من عرس عبيد، ولا ادري لماذا، باع احمد تلك المطحنة وفتح دكانا في بيته. يبيع فيه السكر والشاي والحلويات والسجائر والصابون، وكل الحاجات البيتية، لبلدة بدأت ترتبط قليلا قليلا بحياة المدينة. خاصة حين عبد الطريق بين الحامضية والرمادي، وبدأت تنفض غبار الجهل عن نفسها، وتدخل الى العالم الجديد من أوسع أبوابه. حين تخرج عبيد من الكلية وانهى خدمته العسكرية، توظف مهندسا زراعيا في مديرية الزراعة في الرمادي، لكنه وجد راتب الوظيفة لا يسمن ولا يغني عن جوع، وبالذات في سنوات الحصار، فراتبه لم يعد يكفي اجور نقله اليومي، ومصاريفه ودخانه، لذلك فكر بترك الوظيفة، واستعان بعمه احمد الذي كان ميسورا في جميع الأحوال. اتفق معه على فتح محل زراعي على الطريق العام، القريب من بيت عبيد. وهكذا مده أحمد بالمال، وبدأ عبيد يجلب الى المحل الأسمدة الكيمياوية، وآلات الحراثة، والسموم التي تقتل الحشرات الضارة، وبذور الزراعة كالطماطم والرشاد والكراث والبصل والفجل، عدا عن أبصال زهور الزينة التي بدأت تشيع في حدائق البيوت. وكان الاستثمار ناجحا

خلال سنوات استطاع عبيد بناء بيت حديث وتربية أولاده وتعليمهم، وتأسيس أكبر متجر للمواد الزراعية في ضفاف الفرات.

وكان أحمد لا يعير اهتماما لما يجري حوله من أمور. لا يتدخل في السياسة ولا تعنيه الأخبار التي يسمعها عما يجري في العالم الخارجي. حتى حين دخل الجيش الأميركي الى الحامضية لم يستغرب أحمد وجودهم. وقال حين رأى رتل الهمرات المار على الشارع،

الظلم لا يدوم، وكان ينظر الى خوذ الجنود وبنادقهم وأناقتهم باعجاب واستغراب. طبعا يغلبون جيشنا، لا يمكن مقارنة هذه الأناقة بأناقة جنودنا المبهدلين. وتمنى لو أنه يعرف اللغة الانكليزية لكي يتناقش معهم عن أمور الحامضية والمشاريع التي تحتاجها، وعن دعمهم لليهود، وهل وصلوا الى القمر حقا؟ إنهم محشوون بالدولارات. قال. ونحن أهلكنا صدام حسين والبعثيون. من حرب الى حرب. ونحن نحتاج محطة تصفية ماء، وشبكة تلفونات، وكهرباء، وتجديد المدرسة التي لم يضع عليها أحد حتى طابوقة جديدة منذ الحصار. شاهدوها كيف تبدو، لا يستطيع حتى الشحاذون الدراسة فيها. تحولنا الى بلد مثل الصومال. رغم أننا نمتلك النفط والغاز والأورانيوم والنترات والزيبق والتمر. التمر وحده يمكن أن يحولنا الى دولة مثل أوروبا. ماذا ينقصنا؟

أول شخص تعرف عليه أخي سعيد حين عاد الى البلدة هو أحمد الأعرج. قال كمال: كان الحشد في الحديقة كبيرا، جموع تذهب وجموع تأتي، وأنا واقف قرب سعيد أحاول أن اعرفه على المهنئين. اهمس له في اذنه اتعرف هذا؟ يجيبني كلا. اقول له إنه خلدون فيصيح مادا يده خلدون كم تغيرت اتذكر حين قضينا الابتدائية سوية، ويغرقان في قبلات واحتضانات طويلة. اقول له هل تعرف هذا؟ يقول الوجه اتذكره لكنني نسيت الاسم. انه خميس، ويصيح سعيد خميس يا رجل ما هذا الزي العربي الذي ترتديه؟ ويكون خميس لابسا عقالا وكوفية بيضاء وعباءة خفيفة من الوبر بسبب الحر، يقول له خميس حدثنا عن البلدان التي زرتها، او اين

كنت يا رجل، لقد سمنت ودب الشيب في رأسك. يتذاكر سعيد مع خميس عن ايام الدراسة في المتوسطة ويوردون اسماء المدرسين، او يذكره خميس بحادثة ما حصلت معهما في الرمادي. وهكذا مع اغلب الذين حضروا مهنئين في الأيام الأولى.

جرى ذلك مع الجميع الا احمد.

فما ان دخل من فسحة الحديقة وشاهده سعيد قادما نحوه سألته اتعرفه؟ قال طبعا انه احمد الأع..، وقبل أن يكمل استدرك قائلا: أحمد العبد، اليس كذلك؟ الوحيد الذي لم ينس اسمه، وتذكره مباشرة. وظل أبي كعادته، ورغم كل الهزات التي حصلت للحامضية، يجلب أحمد بعد صلاة الجمعة لكي يتغدى معنا. حين يكون سعيد في البيت يبدأ أحمد بأسئلة لا تنتهي عن كل شيء، وكأنه يريد أن يأخذ من أخي كل معارفه وتجاربه التي عاشها. وكان الموضوع المفضل لأحمد سماع سعيدوهو يحدثه عن حياة الأوربيين الذين عاش بينهم اكثر من خمس عشرة سنة. متنقلا بين بريطانيا والسويد والدانمارك والبرازيل والمانيا وأسبانيا.

- يقولون إن الأوربيين فاسدون يتسافدون في الشوارع، هل هذا صحيح؟

- كلا من قال ذلك. لديهم أسر وأطفال. وهم يتزوجون ويطلقون مثلنا تماما.

- وأنت هل تزوجت منهم؟

- مرة واحدة. لكنني لم انجب أطفالا.

- وماذا كنت تشتغل هناك؟

- اشتغلت في كثير من المهن. في المسرح وفي تعليم اللغة العربية والدراسة.

- دراسة؟ الم تكن مهندسا؟

- نعم ولكنني درست شيئا آخر. العلوم الروحية.

- يعني تعالج المجانين؟ عسى ان لا تكون ساحراً.

- لا لا ، العلاج الروحي. يعني معالجة المأزومين ومن لديهم مشاكل بالحب. شيء له علاقة باليوغا والتأمل والمساجات واستذكار الطفولة.

- وهل كنت تعيش عن طريق هذه المهنة؟

- لا لا ، هناك في بريطانيا شيء اسمه الضمان الاجتماعي. حتى العاطل عن العمل يحصل على راتب يعيش به.

- هل تعتقد اننا في العراق سنصل الى هكذا حياة؟ نستطيع ان نسافر ونرى الدنيا ونرى البحار مثلكم انتم الذين عشتم في أوربا.

- لم لا فقط لو يتركون البلد يستقر قليلا. العراق بلد غني، ويستطيع اعادة بناء نفسه خلال اقل من عشر سنوات اذا ما توفرت حكومة صالحة وقوية.

- من اين تاتي الحكومة والشباب يذبحون كل شخص يتطوع في الشرطة والجيش. حتى شبكة الموبايل نسفوها قبل اسبوع. هذا ابن جيرانكم يقال انه اصبح أميرا. يعني ذبح عشرة اشخاص بيديه. اسماعيل بن سعيد اصبح أميرا.

ويضحك احمد ضحكته المكركرة. يعقبها بلحسة من لسانه على شفتيه. هذه العادة التي لم يغيرها منذ عشرين سنة. هكذا حوارات وغيرها طالما سمعتها تدور كلما كان سعيد حاضرا في

البيت. وأحيانا يتجرأ على سؤاله اسئلة لا نتجرأ عليها نحن اخوته. مثلا كم الف دولار وفر خلال غيابه، وهل ان السوريات لذيذات في الفراش، ولم لم يتزوج عراقية، وهكذا. وفي امسيات اخرى يقضي عصرا كاملا مع سعيد وابي وكمال في الحديقة وهم يتذكرون ايام زمان، الايام الحلوة كما يصفها احمد. يقارنها مع هذه الايام التي تغير فيها كل شيء. ايام الخير التي لن تعود. وفي ساعات اخرى يذكرون قصص الشاعر ملا ذياب وحكايات صاحب الدكان عواد، ومباذل بعض النساء اللواتي متن قبل ان امتلك انا وعيا وذاكرة. كانوا يستعيدون حياة اخرى تختلف تماما عن الحياة التي نعيشها.

كنت اعتبر احمد الأعرج ذاكرة القرية وأرشيفها. فهو يعرف تفاصيل الاسر التي تعيش في الحامضية. ويتتبع اخبار من يهاجر عن القرية ومن يموت ومن يتزوج. وكم يمتلك هذا الشخص او ذاك من ثروة. كتب سعيد زاوية في الجريدة، بعد أسبوع من غرق سلام بن أحمد. سماها الموت الجميل. كتب فيها ما معناه: في بلدتي بدأ الناس لا يصدقون أن موتا طبيعيا، أو طارئا، موجود في الحياة. نسوا الموت المفاجئ والغرق والحريق، لأن موتا بشعا ووحيدا فرض نفسه على البيوت. موت شيطاني. موت بحز السكين في الرقبة، أو في انفجار عبوة ناسفة زرعت على الطريق، أو برصاص قناص أميركي يختبئ في شجرة طرفاء او على سطح بيت او عند قنطرة، أو موت تحت تعذيب المتطرفين الذين يريدون قتل الحياة، وخنق حرية البشر، وتغيير طقوسهم التي تربوا عليها منذ قرون. هكذا مات ابن صديقي أحمد. نزل الى الفرات ليسبح، مثلما كنا نفعل منذ آلاف السنين، فاختطفته الأمواج بأصابعها الخشنة، وقضى غرقا في جنة الرمال.

كان موتا جميلا، مقارنة بالموت البشع الذي ينتشر في مناطقنا هذه الأيام.

وحين قرأت الزاوية لأحمد ذات ظهيرة، لم يتمالك عن البكاء، وقام الى أخي سعيد وقبّله في جبهته. قال له بتأثر أنتم الذين هاجرتم أنظف الناس. لم تتلوثوا بأمراض البلد التي عشناها في السنين الأخيرة. عودتكم ستكون، إن شاء الله، بشير خير على البلد.

تغير أحمد كثيرا بعد موت سلام. صار يهاجم المجاهدين علانية. ويدعو الى طردهم من البلدة التي جاءوا لتخريبها حسب ما قال. خربها البعثيون عشرات السنين وجاء العرب ليزيدوها خرابا. فلم لا يذهبون للجهاد في فلسطين؟ لماذا يأتون الينا ويخربون حياتنا؟ كان كلما ازدادت تجارته تدهورا يتصاعد لديه الهجوم. فعلا بارت تجارته، فالنهر لم يعد يستطيع أحد الوصول اليه بحرية. وكسدت الزراعة ولم يعد يهتم بها أحد. طريق الرمادي مغلق دائما بسبب المواجهات التي تحدث بين الأميركيين والمجاهدين. وأصبحت الناس تعود الى بيوتها ما ان تغيب الشمس. وفقد الأمان بين الطرق الواصلة الى الرمادي وبغداد والفلوجة والحبانية والخالدية. وقبل أن يقصف بيت عمي حسن بأسابيع، اضطر أحمد الى غلق دكانه، وجلس هو وعبيد في بيتيهما دون عمل.

لم يعد يجيء الى الصلاة في الجامع. وتحول الى اذاعة متنقلة لمهاجمة المجاهدين وتسفيه آرائهم، والسخرية من طريقة تدينهم التي وصفها قائلا: لقد أصبحت مكتهم السكين. وكان يقصد السكين التي بدأوا يستخدمونها لذبح كل من يعارضهم أو من يصنفونه على أساس أنه عميل وخائن.

2

حكمة أبي معروفة في البلدة. لكن حكمته لم تفده في ذلك اليوم المشؤوم. اليوم الذي تحول فيه رأسي الى بالون هوائي فارغ تماما. آمنت أن الكوارث تفتح الباب بعضها لبعض. وأن ما يجري اليوم هو عنوان متواضع لما سنشهده في حياتنا القادمة. جبل الجليد الذي تحدث عنه الدكتور ذاكر يشف عن مكوناته الحقيقية. عودة الشيخ الى صباه، فأخي سعيد يتحدث كثيرا هذه الأيام عن عودته الى المهجر.

الهجرة المعاكسة واحدة من جزيئات الجبل الجليدي الذي لا يبين منه سوى القمة. طريق الرمادي بغداد يعج بالهاربين. ما رأيته في ذلك الطريق أذهلني. قلت لأخي كمال: هل من المعقول أن يهجر الشعب بلده؟ ومن هو المسؤول عن ذلك؟ أظن أن الجميع يتحمل جزءا من المسؤولية. الجميع.

هل كان أبي يعرف أن مصيره سينتهي قريبا، وسيقدم نفسه ضحية لما يحدث في البلدة، أو في الوطن عموما؟ بكل بساطة كنت مسرورا باجتياح القوات الاميركية للبلد، وما أعقبه من ازالة دولة ظالمة. مشاكسة تحارب حتى نفسها. أغلب أهل البلدة كانوا مسرورين بما جرى. لكننا لم نتصور يوما أن التطورات ستأخذ هذا الشكل الكارثي. أختي الكبيرة شكرية، زوجة حمادي المؤذن، على سبيل المثال. نذرت أنها اذا ما زالت هذه الحكومة ستلبس كيسا من الخيش وتنزل به الى مدينة الرمادي، احتفاء بالحدث. اما لماذا

الكيس فلست أعرف. سألتها لماذا؟ قالت كيس عتيق من الذي يحفظ فيه السكر والقمح والرز، وهي سترتدي هذا الزي وتذهب الى المدينة احتفاء بسقوط هؤلاء القتلة، ولتثبت أنها عملت شيئا فريدا أمام الجميع. لقد وفت أختي شكرية بوعدها فعلا، بعد أسبوع من دخول الجيش الأميركي الى المنطقة. ارتدت الجنفاص وركبت السيارة مع كمال ونزلت الى الرمادي. وكان جميع من شاهدها ظن أنها مجنونة. قالت لها أمي ما هو سبب النذر؟ قالت أعرف أن زوال هذه الحكومة معناه رجوع سعيد الى البلدة. أخي الذي لم أره منذ عشرين سنة. كيف لي أن أنساه؟ كان يذهب معي الى مطحنة أحمد الأعرج لطحن القمح. ويساعدني في جلب المياه من الساقية. ويعنفني حين اتبرج واقف أمام البيت. ويحدثني عن طالبات الجامعة اللواتي كان يدرس معهن. ولن انسى ذلك اليوم أبدا، حين مسح لجدي مؤخرته بقطعة من القماش. جدي الذي اخرف بعد عمر جاوز المئة سنة وصار يفعلها امام الناس. رائحته ما زالت عالقة في ملابسنا. وعطره ياتي الى أنفي حتى في الاحلام. كنا نعده عمدة البيت وخليفة أبي. أجبروه على مغادرة الحامضية هؤلاء الأنذال. لم لا افرح بسقوطهم.

قريبنا الشيخ خليل كان نذره مختلفا بعض الشيء. نذر أنه سيقيم حفلا ساهرا أمام دارهم. وسيجلب الطبل والمزمار ويقيم الفرح ثلاثة أيام ما ان تسقط الحكومة هذه. وفعلا نفذ وعده وحضرنا ذلك العرس بالمئات. ثلاثة أيام والطبل يدق في أرجاء الحامضية. تلك الأيام كانت مليئة بالأحلام، حتى أخي كمال المتحفظ عن ما يجري في البلد، حلم كما قال لنا اكثر من مرة بامتلاك جواز سفر يذهب به

الى تركيا وسوريا واليونان. عزز حلمه ما كان يقصه لنا أخي سعيد، بعد رجوعه، عن أوربا والبلدان التي عاش فيها. لكن حلمه تلاشى قليلا قليا، وعلى مر الشهور والسنين. لكن أبي ظل حكيما في حكمه على الأحداث. كان كلما حلقنا بأحلامنا نحو السماء يعيدنا الى الأرض. قال لنا لا تتفاءلوا كثيرا. الجماعة حكموا ثلاثين سنة أو يزيد وليس من المعقول أن يتركوا السلطة بهذه السهولة. كما لم يكن أبي يثق بالأميركان على الأطلاق. قال إن الانكليز أكثر حكمة منهم. فهم يعرفون تقاليد العراق ونفسية الانسان العراقي. الأميركان لا يسمعون رأي أحد. يعتقدون أنهم الأقوى والأذكى والأحكم. هذه هي مشكلتهم.

فعلا لم يكن أحد في البلدة يثق بالأميركان. حتى من كانوا يكرهون البعثيين ويتمنون نهاية صدام حسين. في اليوم الأخير من رمضان لا مسنا بالتجربة حمق الأميركان وهوجهم. لا مسنا ذلك عيانا ولكن بعد فوات الأوان. بعد أن ارتكبوا في الحامضية مجزرة تكلمت عنها كل قرى ضفاف الفرات. وكتب أخي سعيد عشرات المقالات والأعمدة عن الموضوع، وراح يجمع الوثائق عن الكارثة تلك. كيف حصل ذلك؟ ومن هو صاحب المصلحة؟ وكيف وقعنا في الفخ؟ كلها أسئلة لم تعد تعني شيئا لنا. لنا نحن الأحياء الذين دفنا موتانا، ومنهم أبي، في مقبرة البلدة القريبة من صحراء الجزيرة. كان آخر يوم من رمضان. تركت العمل في معمل الحصى قبل أسبوعين من العيد وجئت الى البلدة. قالت لمياء ان احمد وحسين وبثينة بحاجة الى ملابس جديدة للعيد. انشغلت طوال رمضان بتجهيز الملابس وتقليم الحديقة

وشراء الأغراض من المحلات أو من الرمادي اذا صادف وكان الجسر سالكا.

اما أبي فجلب سجادتين فاخرتين وفرشهما في الصالون. واشترى خروفا من احد الرعاة الذين مروا في الشارع العام. جهز الخروف ليوم العيد. كان من المفترض ان يصبح احتفال العيد في بيتنا لان ابي هو الأكبر بين الاقرباء. وعادة ما يتجمع الاقرباء في بيت الرجل الكبير. وهذه عادة درجنا عليها منذ ان وعيت على الدنيا. لمياء وأمي ونجاة وخالتي تعاون منذ الصباح الباكر على تنظيف البيوت وتنسيق المفارش وتحضير المواد التي ستطبخ ورش الفسحات الخضراء امام البيوت والاعتناء بالحدائق. اما امور الملابس والاحذية وكسوة الاطفال وترتيب الزيارات اثناء العيد فقد اكملت قبل هذا اليوم. كان ابي دائب الحركة بين الدكاكين وبين البيت. نتوقع مجيء سعيد وزوجته ايضا في صباح العيد. ونتوقع مجيء اخواتي المتزوجات في اماكن بعيدة عن الحامضية. اخي علي جاء الى الحامضية منذ امس، هو وزوجته سندس وابنهما بالتبني حمودي. ما لفت نظرنا منذ الصباح هو سماعنا لاطلاقات نارية بعيدة وانفجارات متتالية بطيئة لكنها ظلت مستمرة حتى قبل الظهيرة. من خلال معرفتنا بنمط السلاح الاميركي عرفنا ان ثمة مواجهة بين الاميركان والمجاهدين تحصل في الجانب المقابل لنا ، في منطقة الشامية ، عند قرية السجارية بالتحديد. وحين ذهبت الى المحلات قرب جامع الزبير امكنني رؤية الدخان المتصاعد بعيني ، ووجدت شبابا كثيرا يتجمعون قرب محل عماد او امام الحلاق مجيد وهم يشيرون الى الضفة الثانية من الفرات بحماس.

- المواجهة هناك، لا تتعدى السجارية. لا بد انهم قتلوا عشرات من الجنود الاميركان.

- لا يهم الاميركان العدد لان اغلب جيشهم من المرتزقة. هم لا يضعونهم في الاحصاء حتى.

- قال لي مجاهد سعودي قبل يومين انهم حصلوا على صواريخ ستنكر. مثل تلك التي استخدمها المجاهدون الافغان ضد الروس. سيرى الأميركان قريبا ما ينتظرهم من مفاجآت.

- عمي، اميركا دولة عظمى، هل تعتقد انك ببندقية كلاشنكوف تستطيع ان تهزمها؟

- كيف هزموهم في الفلوجة اذن؟

- من هزم في الفلوجة؟ اتعرف كيف اصبحت الفلوجة اليوم؟ خرائب. دمروا كل شيء. هل تعتبر هذا انتصارا؟

- المهم هو الجهاد، لن ندعهم يرتاحون ولا يوما واحدا.

- لكننا لن نرتاح ايضا. الدوائر معطلة. والمدارس مقفلة. وبعد اشهر سنبدأ باستجداء الخبز. نحن الذين ندفع الثمن.

- انظروا انظروا، الله واكبر الله واكبر...

صاح شاب ملتح ونحن نقف أمام دكان عماد. كانت السماء صاحية. طيور الزاغ والغربان تطير من ضفة الجزيرة الى ضفة الشامية أو العكس. من بعيد، من فوق ذرى النخيل في قرى الشامية، رأيت دخانا رفيعا يطير في السماء، وثمة جسم اسود يسحبه وراءه. انها طائرة على ما يبدو. وسط هذا الضجيج امام الدكاكين راحت اعداد اخرى من السيارات والشباب والمارة والمتبضعين للعيد تتجمع حولنا.

حقول الحامضية تمتد امام ابصارنا والبقر يرعى في ثناياها الجت والبرسيم. هذا هو الخريف الذي ينط بقدميه البطيئتين نحو الشتاء. الصفري كما كان جدي يسميه. أستطيع أيضا رؤية مضخات المياه قرب بستان حتوش. قطعان من الغنم ترعى قرب الضفاف البعيدة. والشمس بدات تقترب من السمت. وقبل قليل فقط أذن حمادي الى صلاة الظهر. ورأيت أبي يتجه مع خالي ذياب الى الجامع. شعرت بانقباض في صدري. هو يصيبني دائما كلما أحسست أن ثمة مصيبة ستقع لي أو للمحيطين بي. أمتلك حدسا غير مفهوم. وها هو الآن يستولي علي. افهم ما يرافق ذلك الحدث وأعيشه. عادة ما تتلبسني حالة ذهول حين أستبق الكارثة. ذهول يلفني ويجعل من حواسي محايدة أو مخدرة، بحيث تصبح الأشياء من حولي أشبه بالهلام.

راودني أحساس أن البلدة لن ترى العيد هذه السنة. ورغم وجود اللغط والحوارات والاشارات والحماس كلما تقدمت الطائرة نحونا، فقد كان كل شيء ساكنا. حتى الشفاه التي تتكلم لا أسمعها. حتى مشاهد الطيور في السماء تمر مثل حلم. أجنحة تصطفق. مناقير تقاوم الهواء. وأسراب هلامية تمضي الى الغياب. وكانت الطائرة رغم ذلك تتقدم نحونا. عبرت نهر الفرات. وها هي تطير فوق حقول الذرة، والقمح، فوق الحلفاء والطرفاء، فوق السواقي الداكنة اللون التي تحمل المياه من الفرات الى الأراضي المجاورة لصحراء الجزيرة.

طائرة تحترق. من نوع أباشي. صرنا خبراء بنوع الطائرات الأميركية.

الأباشي والفانتوم والشبح والبي فقتي تو والذبابة وغيرها. الذبابة من أزعج ما شاهدناه في حياتنا. لم تعرف الحامضية في حياتها، رغم انها عاشت حروبا كثيرة، مثل هذا النمط من الطائرات. حين رجع أخي سعيد في ذلك الصيف الحار، فضل أن ينام مع زوجته السورية على السطح. قال لنا في اليوم الثاني إنه لم يكن يعتقد حتى في الأحلام سيسهر على سطح البيت في الحامضية وطائرة الأباشي تلوث منامه وتحرمه من متعة النجوم، والهواء الصيفي الهاب من ضفاف الفرات، كما حدث له في تلك الليلة. اعتدنا نحن على مرور طائرات الأباشي المنخفضة في الليالي كلها. مهمات غير معروفة تقوم بها تلك الطائرات. لا ضوء لها. لكن صوت محركها يرعب الحواس كلها. أما الذبابة فقد ادهشته تماما. كان حين يأتي الى البلدة نضع له الكراسي في الحديقة وهو عادة ما يحب الجلوس في الحديقة لتأمل النخيل المظلل لنا، وذرى شجرات الكينا القريبة من الباب الأمامي. سأله حسن وقتها عن اسم الطائرة فقال له لا أعلم. قال له حسن انها الذبابة. والذبابة طالما أزعجت مجالسنا، صباحا ومساءا، نهارا وليلا. الذبابة طائرة صغيرة من دون طيار. لونها حليبي وتدوزن لكي تغطي في طيرانها منطقة شاسعة. ما هو دورها، وماذا تعمل في الأعلى، وكيف تطير في الليل والنهار، ومن تستهدف، وماذا تصور، وما الهدف من طيرانها، كل ذلك كان الغازا وأساطير لنا. في حياتنا سمعنا صوت الميغ وهي تمرق في السماء، ذلك الصوت الثاقب السريع الذي يخلخل جذور السعد ويرعب بنات آوى في الحقول، ويجعل البقر ينط من مرابطه. وسمعنا لاحقا صوت الفانتوم وهي تخترق حاجز

الصوت مسببة بكسر الزجاج الرقيق وايقاظ الأطفال في المهود. لكن صوت الذبابة من أغرب الأصوات. أحيانا نسمعه ونحن جلوس في بالكونة كمال، أنا وعلي وسعيد وحسن ونور ونجاة وسندس والأطفال. وكان شبيها بأنين متواصل خافت. نتبارى بيننا على من يستطيع رؤية الذبابة.

عادة ما يفوز حسن بن كمال.

خيط حليبي صغير يسير في سمائنا بهدوء ورتابة، وكان الصوت يبقى ساعات يرن في الأذن. يصبح شبيها بوسيلة تعذيب للجميع. نساء ورجالا، اطفالا وشيوخا، بقرا وماعزا، حشرات وطيورا. لكن ما أشاهده اليوم ليس بذبابة تحترق. إنها طائرة مروحية عسكرية، مزودة بالصواريخ وقاذفات القنابل وماسورات لاطلاق الرصاص، اسمها الأباشي. كانت تتقدم نحونا. الدخان يتبعها. دخان اسود. دخان حريق. دخان اصابة قاتلة. والجديد الذي رأيناه في السماء وجود طائرة ثانية تطير قرب الطائرة المريضة. المصابة. التي تعاني من السعال. من ضربة صاروخ مجهول الهوية. أطلق من خلال بساتين منطقة السجارية. أو من فوق بالكونة أو سطح. وربما أطلق من بين كثافة قصب الضفاف التي ظلت، ولعقود طويلة، تزرع البطيخ واللوبياء والطماطم والرقي الشبيه طعمه بالسكر. صدق السعودي في روايته حول الستتكر.

من مكان ما من البيوت المحاذية للطريق العام، أو ربما من خلال الدكاكين المزروعة على امتدار الطريق حتى حدود البلدة، ثارت اطلاقات من بندقية بي كي سي. وجهت الاطلاقات إما الى الطائرتين المتجهتين نحونا، وإما احتفاء بهذا الحدث الذي نادرا ما نراه

في الريف. مع تهليلات وتكبيرات كانت تنطلق من بعض الأمكنة. بيت صالح البطاوي، دكان عبيد الفرحان، المجمع الطبي الذي يشرف عليه الدكتور ذاكر، ومن بساتين النخيل الصغيرة التي تحاذي جامع الزبير. ثمة بهجة في أكثر من مكان لمرأى الطائرة التي تعاني من سكرات الموت. أما أنا فلم أكن مبتهجا. قلبي يعصرني. أعصابي تخبرني بحدوث كارثة عارمة. الأمور لا تسير في الطريق الصحيح. لكن أين هو الطريق أصلا؟

انفصلت عن الحشد ورجعت الى الجامع. سرت بعجلة في الطريق المؤدي الى بيتنا. لمحت أبي وخالي قريبا من بيتنا. انتهت صلاة الظهر منذ دقائق. كانا غير منتبهين الى الطائرة المحترقة التي تتوغل في أفق بلدة الحامضية. قبل وصولي الى بوابة بيتنا رأيت الطائرة وهي تتفسخ مثل جثة متعفنة. تلك مشاهد لا يراها المرء الا في السينما. قربها تحلق الطائرة السليمة بايقاع رتيب يرافق بنفاد صبر تفسخ الأباشي. مثل لقطة سينمائية خرافية شاهدت المروحة الأمامية تنفصل عن الجسد. تطير في الهواء. ليست زرزورا. ولا عروس نخيل. ولا زاغا وفد توا الى نخيلنا وحقولنا في هجرة دائمة. إنها طائر من حديد. كان يفتل. يتأرجح. يتقدم نحو البيوت. نحو المحول الكهربائي لطالب. وكان في كل ثانية يفقد من عزمه وينحدر الى الأسفل. كم شخصا رأوا ما رأيت؟ ربما عشرات. ربما مئات. فأحداث مفاجأة مثل هذه، أشبه بشريط سينمائي يحاول الجميع تتبعه ورؤيته وتفسير مغازيه.

وهذا ما حصل في الحامضية قبل العيد.

ماذا أفعل؟ سألت نفسي. ذهبت ركضا الى البيت. أخبرت أبي بما يجري. كانت لمياء تحمم حسين في الحمام، وحسين يصرخ من حرارة الماء. أمي وجدتها تعد الغداء لنا. خرجت راكضا الى بيت كمال. وجدت علي وكمال وسندس ونجاة والأطفال يتناولون الغداء. ثريد الخبز مع لحم الدجاج والبصل الطازج وابريق من اللبن يقف في وسط السفرة. أخبرتهم بما يحدث. وقفوا كلهم بخوف. خرجنا الى الحديقة. ورأينا دخانا يتصاعد من بعيد، خلل نخيل لا يبعد عنا اكثر من نصف كيلو متر. هناك كان بيت خالي حماد وزوجته الأرملة وأولادها. وهناك بيت ابراهيم الحمد. وهناك البيوت التي تتلطى بغابات النخيل. وهناك في الطرف المقابل مولد طالب الذي يغذينا بالكهرباء في الليالي المظلمة.

لقد سقطت الطائرة كما خمنا قريبا من بيت خالي حماد. في الحقل المجاور لسياج البيت. كانت الطائرة المرافقة تحوم فوق البيوت. في فضاء البلدة مثل نذير شؤم. ورحنا نسمع اطلاق رصاص في اماكن متفرقة من البلدة. وصرخات الله اكبر ترتفع من سيارات مارة، ومن بيوت، ومن فضاءات حقول يعمل فيها الفلاحون، ومن اسطح الدكاكين القائمة على جانبي الشارع العام.

قال أخي علي بنفور:

- اسمعوا هؤلاء العضاريط، يعتقدون انهم هزموا اميركا باسقاطهم طائرة مروحية.

- الله يستر الحامضية. ستكون التبعات هائلة.

- انهم مبتهجون اتباع صدام. لم يصمدوا يوما واحدا امام التحالف وها هم يستعرضون بطولاتهم في الحامضية. يا لهم من اوغاد. اوغاد وجبناء.

- الجميع الى الداخل. لن تنتهي القضية بسلام.

- الجميع قتلة. مع من نقف؟ هل ندافع عن اولئك الذين حولوا الفرات الى مقبرة؟ ام ندافع عن الكابوي الاميركي الذي يريد ان ينهب نفطنا وخيراتنا ويتخذنا مطية لمحاربة ايران؟ نحن بين المطرقة والسندان. فليقل لي أحد منكم الى من نلتجئ؟

فعلا لم تنته القضية بسلام كما توقع أخي كمال.

سقطت المروحية المحترقة في الحقل المجاور لبيت خالي حماد. زوجته الأرملة سعيدة أخرجت أولادها الثلاثة وأغلقت الباب حالما شاهدت الحادث. اتجهت الى أهلها في الجهة الثانية من البلدة. حدست ربما ان الأمور ستتطور الى الأسوأ، بعد أن سمعت الارتطام والرصاص وتجمع الناس حول المروحية. كان الحقل بقايا لزرع البرسيم المتروك منذ الموسم الماضي. وكانت ثلاث بقرات لصاحب المولد طالب ترعى هناك. تجمع شباب من بيت مهنا القريب. تجمعت نسوة من آل الشيخ. حملت الدروب رجالا غير معروفين في البلدة اتجهوا نحو الغنيمة. كانت هامدة هناك كما أخبرنا أكثر من شخص في الأيام التالية. في البدء لم يتجرأ أحد من الاقتراب منها. طائرة مغلقة.

جسد حديدي لا يفح سوى الدخان الأسود والرائحة الحادة. رائحة مطاط يحترق وزيوت غريبة وآلات هامدة التهمتها النار. وكان البلور معتما لا يدع مجالا للرؤية من خلاله. ولم يلاحظ الجمع ما

تحتوي الا بعد أن تجرأ شاب من الجوار وفتح الباب. رأى جثث طاقم الطائرة وهي متفحمة غائبة الملامح، وثمة أسلحة خفيفة تتعلق بملابسهم. الكفرة في قبضتنا. قال شاب من الذين راقبوا سقوط الطائرة، وشاهدوا الجثث المحترقة بفعل الصاروخ. وفي هذه الأثناء ارتفعت صيحات الله أكبر من البساتين المجاورة. زخات الرصاص وجهت نحو الطائرة الجاثمة في حقل البرسيم. نحن كنا في داخل البيت وقتها. كنا منتظرين ما سيسفر عنه الأمر. حينها فقط تجرأ رجل كبير وسحب الجثث من الطائرة، ومددهم على بساط من الخضرة. لا يبعد سوى خمسة أمتار عن جسد الطائرة. نط أكثر من شاب الى النخيل المجاور، وجلبوا سعفات نخيل يابسة وعروقا جافة وبقايا قمح من الموسم الماضي. ألقوا بكل ذلك على الجثامين الممدة على الأرض. جردوهم من السلاح. نهبوا المسدسات والساعات والمحابس الذهبية، ثم القوا على الأموات سعف النخيل والهشيم وبقايا الجذور.

وما هي الا دقائق حتى كانت النار تلتهم الجثث. وسط زغاريد من نسوة حضرن الحادث، وكانت في عيونهن التماعات لغضب، وحقد، وتشف وانتقام. كان ذلك كله مصنوعا من حكايات وقصص وأحاديث وأساطير سابقة، سمعنها في مجالس النساء الليلية التي عادة ما كانت تقام في بلدة الحامضية.

هذه اذن نهاية الغزاة!!

ردد تلك الصيحة أكثر من شخص حضر المشهد. لكنها في الحقيقة لم تكن النهاية. فقد غاب عن الجمع المحتشد حول الطائرة ان ثمة طائرة ثانية كانت تنقل ما يجري على الأرض بحذافيره الى

جهات أخرى. كانت الطائرة تستغيث طالبة المساعدة. غاب كل ذلك عن النساء المزغردات، والشباب المدفوعين بحس الانتقام من الغزاة كما سموهم. وكان الدخان يتصاعد في السماء محملا برائحة الشواء البشري. ورائحة الثأر التي كانت تسيل على غصون الكينا والتوت والتين في بستان ابراهيم الحمد، وترسم مصيرا مرعبا لبيتنا الذي كان يتلطى بطمأنينة زائفة. ما كان ينبغي أن يحدث لا بد أن يحدث. حياتنا أصبحت خطا تصاعديا للبؤس منذ بداية الحرب مع ايران، كما قال أخي سعيد في احدى أعمدته بالصحيفة التي كان يعمل فيها. كنا بعيدين عن هذه التفاصيل.

كل شيء توضح لاحقا، بعد أن حدثت الكارثة.

وقال حمادي المؤذن إن الطائرة الثانية كانت تراقب ما يجري للطائرة المحترقة في حقل البرسيم، وهي في ذات الوقت تنتظر امدادا ما سيأتي من قاعدة الرمادي أو من الحبانية أو الفلوجة. لذلك ظلت تحوم في فضاء الحامضية طوال هذه الفترة. كنت وقتها أطل من نافذة الصالون علني أرصد ما يجري في المنطقة. الرصاص لم يتوقف. فرحا أو ابتهاجا أو كان موجها الى الطائرة. نقل أحمد الأعرج لاحقا انه رأى شخصا يرمي من بندقية بي كي سي على الطائرة المحلقة. حمادي المؤمن، والذي لا يحب الأميركان استنكر ما فعل الشباب الذين أحرقوا جثث الطيارين، وأطلقوا الرصاص، وراحوا يرقصون في حقل البرسيم. قال ديننا لا يرضى بحرق الجثث. وديننا لا يرضى بالتمثيل بالأموات. وديننا بريء من التمثيل بالعدو.

قال حمادي ذلك بعد أن سمع أن بعض الشباب الطائشين قاموا بقطع أيادي الموتى وآذانهم وأنوفهم، أو على الأقل ما تبقى منها، مما جعل اخي علي يصيح بصوت غاضب: أجل هذا ما كان صدام ومخابراته وضباطه يفعلون في الناس أيام حكمه. إنهم القتلة ذاتهم. لكن ذلك كله لم يمنع حصول الكارثة. كما أن الطائرة الثانية على ما يبدو قد سجلت رواية مصورة لكل ما جرى لتلك الطائرة، من لحظة اصابتها بصاروخ ستنكر، أو غيره، حتى احراق الجثث في حقل البرسيم القريب من بيت خالي حماد. لم يستغرق الأمر سوى نصف ساعة فقط. جاءت مروحيات وعربات هامفي وهمر ودبابات غريبة الى البلدة. طائرة الذبابة صارت تحوم فوق حدود البلدة. من استراحة على النجرس غربا الى مدرسة ابو عبيد شرقا. ومن صحراء الجزيرة ومقبرتنا الى الفرات وقراه في منطقة الشامية. وانتشر جنود في مكان سقوط الطائرة. جنود يضعون الدروع على اجسادهم. الخوذات تغطي رؤوسهم. الجعبات تثقل ظهورهم. وأدوات الاتصال تنتأ من أجسادهم. كما اخبرني أكثر من واحد رآهم. كل من شاهدهم في منطقة الحادث ظن أنهم كائنات هبطت من المريخ أو من مجرة أخرى. صاروا يقارنون ما راوه في الأفلام التي تتحدث عن الفضاء والكائنات الفضائية، وهؤلاء الجنود. الشبه كبير. وعلى اية حال دخل الجميع الى البيوت.

احسسنا أن ثمة أمرا جللا سيقع في البلدة. قال المؤذن لاحقا، إنه كان يراقب من شباكه ما كان يجري. بيته يبعد حوالي خمسمئة متر عن الطائرة. أول شيء فعلوه تطويق المكان كله، بما فيه بيت

خالي حماد الذي كسروا بابه وصعدوا الى السطح مع اسلحتهم القناصة. حطت مروحية خاصة في حقل البرسيم وبدأ جنود ينقلون بقايا الجثث الى تلك الطائرة. رمى أكثر من جندي انتشروا في النخيل القريب الرصاص نحو البيوت عشوائيا، كبادرة للتخويف اكثر مما هي بادرة تعمد لقتل أحد. كان الجميع في البيوت، يجلس مترقبا ما سيحدث. قالت أمونة، أرملة ابراهيم الحمد، انها كانت جالسة أمام باب البيت تراقب كل ما يجري. لم تكن خائفة حسب ما قالت في الايام التالية. ولم تخاف؟ عمرها شارف على السبعين وعاشت الحياة مرها وحلوها. خلفت خمس رجال وهي جدة لعشرات الصبية والبنات. مات زوجها ابراهيم وهي في الخمسين، ولم تعد تنتظر شيئا جديدا. هي لا تخاف من هؤلاء الانجاس كما رددت أكثر من مرة. رأت كل التفاصيل. كانوا مثل الدود. انتشروا بين بساتين النخيل وصعدوا الى سطح الحاج حماد وساروا في الطرق المتغلغلة بين بيوت البلدة.

بعضهم كان يضع نواظير على اسلحتهم وبعضهم يحمل اسلحة عجيبة على ظهره. بعضهم يجلس على ركبة واحدة ويصوب بندقيته الى البيوت والنخيل والفضاءات. وبعضهم يقف وسط عربته وسلاحه الطويل يرصد الجهات كلها. في هذه الاثناء وبينما كان الجنود ينقلون آخر عظم من الكفرة الى الطائرة الزجاجية سمعنا رصاصا قادما من الجنوب. من بيت الحاج حسن وبيت الحاج حسين. صلية أو صليتان لم أعد أتذكر. فكان أن انفتحت جهنم على مصدر الرصاص. كل من كان يحمل سلاحا راح يرمي على عرب الجنوب. خمس دقائق وتوقف الرمي. هدأت العاصفة وكأن الطير على الرؤوس.

صـنتت النخيـل. وتجمـدت البقـر. وسـكتت عـروس النخيـل. حتـى العصافير لم تعد تطير من شجرة شوك الى شجرة شوك. البشر تخاف على حياتها. والحيوانات ايضا. هذا ما فكـرت فيـه تلك اللحظـة وأنـا أجثو على المخدة الملقاة فوق مسجدي الممدود في الممشى، أمام البيت. ثم بلمحة عين كانت مجموعة من الكفرة تتوغل ركضا في النخيل وتتجه الى بيت حسن. من هناك جاءهم الرصاص. ثم حدث ما حدث. وكل من يقول خلاف ذلك فهو كذاب. رأيت كل شيء بعيني هاتين اللتين سيأكلهما الدود حين أدفن جنب ابراهيم في مقبرة الحامضية. هذا اذا سمحوا لجثتي بالنوم في اللحد.

صاروا يمنعوننا حتى من زيارة المقبرة.

لقد زار أخي سعيد أمونة أكثر من مرة بعد ما قصف بيت عمي حسن وحدث ما حدث. كان يسألها عن كل تفصيل بدقة. ويدعها تكرر ما قالته سابقا وكان على ما اظن يجمع تقارير ومشاهدات عن الكارثة كما كان يسميها. عمل الأمر نفسه مع أكثر من شخص بمن فيهم المؤذن حمادي، الذي روى تلك اللحظات بشكل آخر. قال حمادي ان من اطلق الرصاص على المكان هو من المجاهدين. رأى سيارة بيك أب تقف في زاوية سياج الحاج حسن ثم يقف شخص ملثم مع بي كي سي ويبدا باطلاق الرصاص باتجاه الطائرة. رد الجنود الأميركان كان قاسيا، اذ وجهوا قذيفة آر بي جي أو ما يشبه ذلك الى ذلك البيك أب. لم تصبه. انفجرت في ركن السياج. وفي لمحة عين اختفى البيك اب والملثم الذي كان يقف في سطحها. دقوا بابي بقوة وحين خرجت عليهم مددوني فجأة على الأرض. وضعوا قيدا من

النايلون في يدي، بعد أن أوثقوني الى الخلف. ومن ثم رموني على الأرض مثل كلب أجرب. كدت أن ابتلع الحصى والتراب. وأحسست أن نوبة الصرع التي أعاني منها ستستولي علي. لبستني غمامة سوداء، وفقدت الوعي لثوان. تركوني مقيدا أمام البيت، ومضوا باتجاه بيت حسن. فجروا باب السياج بقنبلة صوتية، الباب الضيق الذي يطل علينا، والباب الواسع القريب من بيت كمال. اقتحموا البيت من الجهتين ودخلوا الى الماشي والحديقة وهم متاهبون لاطلاق النار. دخل بعضهم الى الحريم. قالت خالتي انهم كانوا يرطنون بلغة مثل لغة النور، ويقوم مترجم يمتلك سحنة عربية بالترجمة لنا. سألوا الحاج حسن وكان يقف بدشداشته البيضاء في الصالون ويحاول ان يكون لطيفا معهم عمن أطلق الرصاص. قال لهم نحن لسنا ارهابيين. منذ عشرين سنة ونحن نكره حكم البعثيين. وفرحنا حين دخل الأميركان وأسقطوا الحكومة. هؤلاء اولادي واسالوهم. نحن لسنا مع من يسمون أنفسهم مجاهدين. نحن نريد أن نعيش. انظروا الى قصري هذا هل يمكن أن اكون سببا في هدمه، وهو ثمرة تعبي طوال أربعين سنة أو يزيد؟ أمامكم البيت وفتشوه كما يحلو لكم.

لكنهم لم يكونوا ينتظرون اذنا من الحاج حسن كما يقول حمادي. فقسم من الجنود وصلوا الى السطح اثناء الحوار بين الضابط وحسن.

فتشوا الغرف زاوية زاوية، وخزانة خزانة، والسطح نقبوا فيه، وفتحوا الأبواب المغلقة، في الطابق الثاني، ورأوا ابن قيس أنور وأخته وأخاهما الرضيع في الغرفة العلوية. كان الرضيع نائما بعد أن اطعمته

أمه الحليب من ثدييها. لم يجدوا شيئا. لكنني رأيت عيانا أن جنديا ترك شيئا صغيرا قرب البيتونة. ثبته على حافة السياج الذي يسور السطح. كان قرصا ابيض صغيرا. دسه ذلك الملعون كاشارة لجهة ما لا نعرفها ثم نزل. هذا ما شاهدته أنا بعيني هاتين. وكل من يقول خلاف ذلك فهو يكذب.

جميع الذين سمعت رواياتهم عن ذلك الصباح اقسموا أنهم يقولون الحقيقة. يقولون ما شاهدوه بعيونهم التي سيأكلها الدود.

اكتشفت انا لاحقا أن الناس تستمتع برواية المآسي، خاصة في بلدتنا الحامضية. لقد سمعت ما كانوا يروونه عن مقبرة الماء التي اكتشفتها قرب بستان حتوش. راحوا يروون تفاصيل لم أكن قلتها انا ولم اشاهدها على الأطلاق. من أين لهم هذه القدرة على اختلاق القصص والحكايات والأحداث. قال لي اخي سعيد ذات يوم حين كنا نتحاور عن اختلاف الروايات حول ما حصل ان البشر هنا حياتهم اليومية رتيبة، واذا ما حصل أمر يهز تلك الرتابة يجدونها فرصة لكي يتسلوا بالحكي. ويسقطون خيالاتهم ورغباتهم وأمانيهم وخوفهم على الحادث فيحصل أن يتحول يوما بعد يوم، من حدث واقعي الى حدث اسطوري. هذا ما حدث أيضا لأساطير الفلوجة ولقصف بيت عمي حسن.

سعيد درس في بريطانيا كورسا عن تحليل النفسيات، ولغة الجسد، وكيف يفكر البشر المنعزلون. على اية حال، لم تتطابق أي من الروايات التي قيلت بعضها مع بعض. لكن من عاش اللحظة مثلي هو الذي يمكنه ان يقول ما حصل. لكن ما اتذكره جيدا عن ذلك

الصباح اننا جلسنا كلنا في الصالون. أبي وأمي ولمياء والأطفال وأنا. جلسنا دون أن نتفوه بأي كلام، الا في الحالات الضرورية. كانت لمياء تنهر أي طفل من الأطفال يحاول أن يقوم من مكانه. وكانت تلمهم جنبها مثل دجاجة تلم فراخها. أبي أراه أول مرة متوترا، وربما خائفا. كانت شفتاه ترددان آيات قرآنية وأدعية. وهو قد منع أيا منا من الاقتراب من الشباك. قال كي لا تصيب أحد رصاصة طائشة. والرصاص لم ينقطع. الرصاص ينطلق من كل مكان خارج البيت. يتوقف لحظات ثم يتجدد بصيغة ثانية. رصاص أميركي. رصاص بلدي. رصاص طائرات. وصوت الذبابة لم ينقطع. تراقب البيوت. الشجر. الدروب. السيارات. مياه الفرات المسافرة من دير الزور وحديثة وهيت نحونا، ذاهبة بثبات الى الجنوب. الى ذلك العالم النباتي الذي عشت فيه ذات مرة، العالم المسمى بالهور.

الذبابة. وكانها غير حافلة بما يجري في الحامضية. يقال أنها ترتبط بنظام عسكري في اميركا. وهم يحولون المعلومات الى قواعدهم العسكرية في العراق.

لم نعد نعرف الحقيقة من الكذب. نواجه أمورا نجهل عنها الكثير.

أمن العجب اننا هزمنا في هذه الحرب؟

◆◆◆

وكان الانفجار مفاجئا. أكبر مما تحتمل أعصابنا.

لا يستطيع امرئ تخيل الانفجار الا اذا كان قد عاش وقعه هو شخصيا. ينبغي أن تكون الحواس جاهزة تماما لهكذا لحظة. لحظة يتخلخل فيها العالم الطبيعي. وتصبح اللحظة لا تشبه ما قبلها ولا ما بعدها. الأذن والعين والأعصاب. العقل لا يعود ذا فائدة. يتعطل. لا تشتغل سوى الحواس الثلاث تلك. وتشتغل لهنيهات لا تسجل عبر مقاييس الزمن. ألفريد نوبل. الله يسامحك على هذا الاكتشاف. هذا الاكتشاف الذي حمل ملايين من الناس الى السماء. حملهم دون أن يعير أهمية اذا ما كانوا يؤمنون بالله أم لا. السماء موطن أرواحنا دائما. حتى لأولئك الغرقى في الفرات. فهم رغم أنهم تحت طبقات من المياه، الا أن ارواحهم بالتأكيد صعدت الى الفضاء الأرحب. المليء بالهواء والخيالات. تخلصت من كثافة المياه مثل فقاعات محشوة بالزئبق. اما انفجارنا الأرضي ذاك فكان رهيبا. صوت تشقق للهواء. لكنه صوت ثخين. مجوف. عميق. هاوية غير مرئية، تنفتح في الفضاء الذي يحيط بالكائنات. سمعت وشاهدت انفجارات في السنين الأخيرة الا انها لم تكن مثل انفجارنا هذا.

هي ليست فرقعة. كانت ثقبا واسعا في عالم متناسق ومتكامل. لم يفاجئ أرواحنا فقط، نحن الكائنات الحية التي تمتلك عينا لترى، وأذنا لتسمع، وأعصابا لتتحس الهلام المحيط بها. كان مفاجئا للجمادات. للبلور والصخور والخشب والقماش والذرات الغبارية الطافية على حرير الأوكسجين والنايتروجين. على حرير الكائنات الأميبية والجراثيم والفايروسات. شق طولي متحرك يخلخل ما ندعوه

بالحياة. أي عقل شيطاني يقف وراء هذا الاكتشاف؟ اي مخيلة استطاعت أن توجه هذه القوة لمحق البشر والجمادات على حد سواء؟ درست في الفيزياء عن معادلات الطاقة، والنسبية، وسرعة الضوء، وكل تلك الترهات، لكنني لم أتخيل أنني ساواجهها عينا لعين، ورعشة لرعشة. كانت تلك دروسا نظرية أخذناها على فراش وثير. أما هذه فنحن حقل تجارب حقيقية لها. نحن الضحايا الذين ينظرون باعجاب وخوف لما يجري لنا.

انفجار. انفجار يهز أركان البيت. انفجار يعبث بحكمة أبي وسذاجة أمي. يعبث بطفولة حسين الصغير الذي وجدته بين فخذي لمياء، زوجتي ذات العينين الخضراوين، وكأنه يروم الرجوع الى رحمها. شظايا الزجاج اجتاحت الصالون. تناثرت على السجاد وتغلغلت في فروة أبي المعلقة على الشماعة. معجون الزجاج صار له رائحة، بعد أن تفتت فوق التخوت، وعلى الطاولات الصغيرة. قطع من البلوك والصخور الكلسية ارتطمت مثل رشقات رصاص بجدار البيت المواجه لبيت عمي حسن. أغمي على أمي، وشاهدت جسدها محشورا تحت الأريكة. أبي انتبهت اليه وهو يحوقل، ويبسمل، ويتشاهد، كما لو كان نازلا، ثابت الخطى، نحو قبر عميق.

هذا ما بشرتنا به يا أخي سعيد؟

فكرت بذلك وأنا أفتح عيني مذهولا من الهجوم الذي اجتاحنا ونحن في الصالون.

جنة أوريا. زهور الجيرانيوم. مرايا الأوركسترات التي تعزف لموزارت. بيتهوفن. سلمان شكر. نصير شمة. عبد الوهاب. ثياب

الامبراطور الحرير. جنات الشواطئ في أقصى برشلونة التي زرتها مع زوجتك الأجنبية. اللغة الانكليزية. البرتغالية. الألمانية. السويدية القادمة من بلاد الفايكنغ. متحف المدام تي سو. حي سوهو الذي قلت لنا إنك تجولت فيه، وشربت النبيذ القادم من كروم تشيلي بينوشية.

الجنة. الجنة التي بشرتنا بها بعد أشهر من رجوعك من دمشق الناعسة، كما وصفتها. ناعسة مثل أنثى في الثلاثين من عمرها. هل من المعقول أن القصف طال بيت كمال على سبيل المثال؟ أم بيت خالي ذياب المجاور لنا من الغرب؟ أغفر لهم كل شيء، إلا أن يخربوا نارنجات خالي التي تتدلى على سياجنا الغربي. لا يمكن. فالعصف جاء من جهة بيت عمي حسن. والغبار شكل شالا كثيفا حول بيتنا، فحجب الرؤية من الشبابيك. كان الغبار يتسرب الينا بكثافة. رئاتنا ممتلئة بالتكنولوجيا. وهي تختنق بالهواء. رائحة بارود وكاوتشوك وحريق خشب واحتراق دهون وصمغيات ونيوترونات وبروتونات وأنوية وهباب مداخن وعطن تنانير محترق خبزها، وشحوم سيارات وبانزين. كل ذلك الخليط من الروائح يجتاح البيت. يجتاح أنوفنا وحواسنا وأعيننا التي باتت تحك، وتلفظ دمعها، احتجاجا، ربما على هذا الاجتياح غير المألوف من الروائح، والمواد الطيارة، والغازات التي تطوقنا دون أن نراها. الله يسامحك يا نوبل. الله يسامح تلك المجندة. قبل اسبوع فقط مرت القافلة الأميركية بطريقنا هذا. وحين شموا رائحة خبز نجاة وهي تخبز في البالكون الأرضي نزلت الشابة المعتمرة لخوذتها العسكرية وطلبت رغيفا من الخبز الساخن. ناولتها نجاة رغيف الخبز بابتسامة ساحرة وهي تنظر باستغراب الى هذه الفتاة التي

تزرع الخوف في قلوب الجميع. اي بيننا وبينهم خبز وملح. ولكن ماذا يعني الخبز والملح للأميركيين؟

دقائق كانت مثل دهر، ثم انجلى الغبار. امي ممدة تحت الأريكة. أبي منبطح على فراش الصوف. أنا وجدت نفسي احيط لمياء والأولاد بذراعي الاثنتين. وارض الصالون مفروشة بالزجاج ونثار الصخور والبلوك والاسفنج. وفي ذات اللحظة التي افقنا فيها من هول الصدمة بدأ اللغط يتعالى. من بيت خالي ذياب. من بيت أخي كمال. من بيت أختي شكرية وزوجها المؤذن حمادي. بيت حسن. بيت حسن قصف. كانت الأصوات تتعالى في الخارج.

قفزت أنا وأبي خارج الصالون. كانت الغبرة لما تزل تغطي كل المساحة حول بيوتنا.

ركض كمال وحسن نحو البيت. ركض رجال آخرون ونساء. ونزلت سيارات من الطريق العام متجهة الى بيت عمي.

وكان المنظر مذهلا. الطابق الأعلى تهدم. لم يكن هناك حريق. بيت عمي فيه غرفتان في الطابق الثاني، وقد تهشمتا تماما. وقعت كتلة كونكريتية ضخمة على سطح البيك أب المتوقف في الكراج وخسفته الى الأرض. الصراخ من بيت عمي يتعالى. أصبح البيت مثل خلية نحل. وكان الغبار ينجلي قليلا قليلا عن البيت. بيت الدكتور ذاكر المجاور لبيت عمي من جهة الغرب تهدمت أجزاء من البالكونة بفعل الانفجار. كان كمال يصيح وهو يتقدم امامنا: قصفته طائرة فانتوم. هذا صاروخ فانتوم. في دقائق فقط تجمع أكثر من خمسين شخصا في بيت عمي. كان أبي يقف في الصالون الواسع،

هو وعمي وخالي ذياب وابنه رسول. كانت الحشود تصعد الى السطح عبر الدرج الرخامي ذي الدرابزون الخشب، تصعد نحو غرفة بيت قيس حيث كان الأولاد هناك. لم أكن أعرف ما أعمل. أندفع يمينا ويسارا. أدخل الى غرفة وأخرج الى الصالون.

اتجول في المطبخ. انظر من الشبابيك، وكانت الحديقة الجميلة المتناسقة التي امضى عمي سنوات في تنسيقها وتجميلها، تحولت الى حقل لكافة الأنواع من الشظايا. كان عمي ينوح على زينة وأنور وعمر وزوجة قيس. الأطفال الثلاثة وجدوهم ميتين. زينة الكبيرة احتضنت انور الرضيع وماتا سوية. زوجة قيس وجدوها شبه مهشمة الجسد. فانزلوها الى الحديقة. وتبرع شاب يمتلك سيارة لايصالها الى المركز الطبي. الأطفال الثلاثة غطوهم ببطانيات ثم حملوهم الى بيت كمال، وسط نواح وعويل وشق ثياب وعيون فارغة.

كان كمال معلقا على السطح المنهار، يحاول البحث عن آخرين.

وكان محمد وخالد وحمادي المؤذن ومحمد العباس زوج الخياطة ورسول ابن خالي وشباب آخرون قدموا من مختلف مناطق البلدة، يبحثون عن ضحايا بقوا تحت البلوك، والخشب، وقضبان الحديد، والأعمدة المنهارة بفعل الصاروخ. ومع مضي الوقت يزداد عدد الناس الذين يتوزعون في الممرات، والحديقة، وعلى السطح، وفي الغرف. الكل يحاول تقديم مساعدة لا يعرف بالضبط ما هي. أخي سعيد في بغداد، لم يصل بعد. لم أر أخي علي. أختي شكرية كانت هناك أيضا. شاهدت حسن للمرة الأخيرة وهو يجلب مطرقة من

الحديد من بيت محمد العباس، ورأيته يدخل الى الصالون. كانت تلك آخر مرة أراه فيها. نور ابنة ابن عمي كانت مصابة بخدوش. وأخرجوها الى الحديقة. كانت سالمة. عيناها الزرقاوان مذعورتان، والدموع على وجهها تختلط بالغبار. أجلوسها في الحديقة قرب البيك آب المحطم. الوجوه التي كنت أراها كانت كامدة. موحشة. فيها تعابير من الرعب والقلق والخوف. الموت في كل زاوية من البيت. الصراخ والعويل والنداءات. شتائم لا أحد يعرف الى من توجه. كان الجميع يشتمون: البعثين، الأميركان، صدام حسين، ايران، المجاهدين، البلد، ولم يسلم من شتائم المتجمهرين الغاضبة سوى الله.

كنت أحس بانقباض يعتصر أحشائي كما لو كان صبة من البلوك. هناك شيء في الجو لا أعرفه. شيء مرعب. كما لو أن كارثة ستقع. لكن هل من المعقول أن تقع كارثة أكبر من هذه؟ أخرجوا زوجة عمي وهي مشقوقة الثوب، لاطمة على وجهها. وجروها جرا الى بيت الدكتور ذاكر. شاهدت أبي واقفا في وسط الصالون، بتعابير لم أرها في وجهه طوال حياته السابقة. لم يكن يبكي مثل الآخرين. وقفة غاضبة. عاتبة. يائسة من هذه الحياة التي عاشها كما لو كانت يوما واحدا فقط. وهذه نهايتها. أيامه التي يعيشها أيام فاصلة، كما كان يقول. هكذا يحسها. ليست مثل العهود التي مرت. هناك تغيرات في البلد شاذة. الشباب يقتلون ويدفنون تحت الماء. هذا ابتكار جديد يقول أبي. الأخ يقتل أخيه. الناس لم تعد لديها أخلاق مثل قبل. السرقة أصبحت رجولة. يوم القيامة يقترب. يقترب ويدخل أبي في فترة الزهد

بهذه الحياة الفانية. لكن زهده لم يجد له ميتة بسيطة كما كان يتمنى.

سمعنا انفجارا مدويا هز ما تبقى من البيت، وتصاعد الدخان من خلف ذرى النخيل، واستطعت ان ارى من خلال السيقان مكان الانفجار. رأيت بلمحة خاطفة تطاير الصخور والغبار والدخان من سطح بيت خالي حماد. كان البيت خاليا وغادر الجنود الاميركان تاركين حطام المروحية خلفهم. كنت اقف على قطعة من السطح تدلت نحو الحديقة متشبثا بالقضبان الحديدية العارية حين انفجر الصاروخ ببيت خالي حماد. تصايح الحشد الواقف في الطريق والحديقة، وسمعت من يصيح قصفوا بيت الحاج حماد. قصفوا بيت الحاج حماد. ثم ركض بعض الشباب نحو البيت، ورأيت اشخاصا آخرين يركضون بين البساتين، وفي الدروب، متجهين الى المكان. اغلب الناس اعتقدوا ان زوجة خالي وابناءها لبثوا في البيت. اعتقدوا ان كارثة اخرى حلت بالمنطقة. لمحت مثل خيال طائرة بيضاء تحلق فوق اجواء المدرسة وتغور في افق صحراء الجزيرة.

يبدو انها الطائرة التي قصفت بيت خالي. ليس هناك طائرات مروحية وهذا يعني اننا قصفنا بطائرات فانتوم.

وقفت على الكونكريت الصلب محدقا في الحشود التي تنتشر في بيت عمي. تسمرت مثل ممسوس ابحلق في البلدة المنكوبة. هي تحت بصري. تاريخها يمتد ذات اليمين وذات الشمال. لم يبق من بساتين النخيل القديمة سوى اجمات متفرقة بين البيوت. سابقا كانت الحامضية بيوتا متفرقة بين البساتين. يا للزمن كم يغير الأمكنة

مثلما يغير البشر. الأمكنة تموت مثل البشر، كما قال أخي سعيد حين كان يشرح السبب الذي جعله لا يهتدي الى بلدة عاش فيها خمسا وعشرين سنة. الفرات يلوح متعرجا بين ضفتيه. ينفتح عند بلدة الزوية لكي يستعيد نشاطه ذاهبا الى الفلوجة. الحمام يطير فوق أعمدة الكهرباء، ومئذنة جامع الزبير، وفوق الصحون اللاقطة على البيوت، وفي سماء زرقاء تتشبث بقطعان صغيرة من الغيوم، تندفع ثم تندفع الى الشرق.

الدخان الذي خلفه الصاروخ كان هو الآخر يسافر ببطء الى الأعلى، وكأنه يدوّن تاريخا جديدا لهذه، البلدة الآمنة، كما وصفها أبي في أزمنة غابرة. على سطح بيت قريب من بيت أحمد الأعرج كان عمال يبنون طابقا ثانيا من البلوك. وخلف ذلك يلوح الطريق الاسفلتي الرابط بين البلدة والرمادي. الواجهات البيض لبيت علي النجرس تتخللها لطخات سود من أغصان الكينا المتدلية عليها. المياه البعيدة تتحدث بلغة غير مفهومة. لمحت مثل برق سريع ضوء شمس ينعكس على زجاج سيارة مارقة. سراب صحراء الجزيرة نائيا أشاهده من مكاني. رائحة النفل في خياشيمي. رائحة السعد. رائحة الطين في السواقي. وذبابات الشتاء تطير فوق أجمة نخيل زرعها حمادي المؤذن في سياج البيت.

كانت هناك طائرة صغيرة تتقدم نحونا. كانت مثل حلم.

وكنت اعيش في بحران المشهد المتجمد حولي. جاءت من جهة الرمادي. آخر مرة رأيتها وكانت فوق بستان علي النجرس. طائرة مثل كل طائرة نراها يوميا في سماء الحامضية. لكنها لم تكن كذلك

على الاطلاق. لقد سلبت من البلدة ثلاثة عشر شخصا، في لحظة واحدة. وأعطبت اكثر من ثلاثين شخصا.

كانت صورة نور حفيدة عمي حسن هي آخر صورة رأيتها قبل أن أغيب عن الوعي.

فالصاروخ الثاني، الذي اطلق على البيت جاء مفاجئا للجميع. لكنني لم اسمع انفجاره. بالضبط من فوق العمال الذين رأيتهم يشيدون طابقا ثانيا بهمة، شاء الطيار أن يستهدف جمعنا.

الطيارون لا يعيرون أهمية للخبز والملح. رمشة عين فقط. لم أسمع بعدها شيئا قط.

هل يستطيع شخص أن يسمع انفجار صاروخ تحت قدميه؟

منظر مذهل. عالم آخر لا ينتمي الى العالم الذي فارقته. هل أنا ميت؟ وهل أنا في الجنة أم النار؟ كلا لست في النار. فثمة نساء ورجال يرتدون ملابس بيض. وثمة أضواء تشع حولي. وسقف يظلل رأسي. وأصوات سيارات بعيدة، وانفجارات، ومزامير اسعاف، وضجة بشر خارج المكان الذي أرقد فيه.

من أنا؟ ولم أرقد في هذا الصالون، على أريكة من الاسفنج المضغوط؟ هل هو مستشفى؟ أم انتقلت الى بلد آخر خارج هذه الأرض؟ هل يعقل أن أخي سعيد نقلني بقدرة سحرية الى واحدة من بلدانه الأوربية التي عاش فيها؟

ثمة وجوه تطل عليّ ثم ترحل. وجوه عجينية معتمة التعابير. وجوه نساء ورجال. وجوه شابة وشائخة. بعض يبتسم، وبعض يتطلع بفضول. ذاكرتي ممسوحة تماما. ذاكرة لا ترى سوى النور المسلط على

جسدي. جسدي عجينة هو الآخر، تنتأ منها انابيب وشعيرات وأشرطة ومشدات شاش. وتنغرس فيها إبر وأنابيب تعبّر أمصال وتسحب سوائل. أنفي أراه أمامي، ضخما مثل ثمرة بطيخ سوداء. فمي لزج ومتورم. رأسي لا ينتمي اليّ. شعري مثل شعر قنفذ بليل. شعر معجون بدم وبارود وعرق. شعر سيشيب لاحقا بغتة. وسأبدأ بطليه بالسواد مثل الآخرين. الشيب مقدمة للموت كما قال أخي سعيد الذي بدأ يصبغ شعره بالسواد ما أن وصل الى البلدة. شعره الأسود وزوجته السورية الجميلة، كل ذلك احدث احباطا لفتيات القرية. حتى أحمد الأعرج خصص ابنته الصغرى زوجة له اذا ما عاد. كانت هناك اربع فتيات اخريات حجزن لسعيد اذا ما عاد من أوربا. أنا لست في أوربا. هذا أكيد.

كانت هناك في زمن ماض عينان زرقاوان، وغابات نخيل، وبيت يحترق. كان هناك في تلافيف خفية لغط لبشر، وانفجارات عالية، وزرقة لسماء، وقطعان من الغيوم. لحية أبي البيضاء تتماوج في المدى المرمد البعيد. حسن يحمل المطرقة الضخمة. جهاد يلف أجسادا ببطانية عتيقة. مقبرة تحت الماء. نبتة الحلقوم. شجرة الدش. عمود السكاكين اللاصفة. بيادق الشطرنج. كتب. كتب سعيد ينط فوق مقبرة القرية. ألواح الموتى تتذكر حربا ضروسا. وشاشات لتلفزيونات تنقل عمليات ذبح حية، ارتكبها اسماعيل بن سعيد الذي يقطن قرب بيت كمال. لكن أين كان كل ذلك؟ من أنا؟ ولماذا أستلقي في هذه العلبة البيضاء المضغوطة؟ قلت لنفسي إن أفضل ما أقوم به وسط هذا الشواش العارم هو العودة الى جنة النوم. الى قطن من البياض، يهدهد

جسدي المحترق. ونمت. افقت. ثم نمت. أفقت ثم نمت. والضوضاء ذاتها. والذاكرة الممسوحة ذاتها. نهار يعقب ليل. وليل يعقب نهار.

مرة ظننت، بين الشك واليقين، أنني رأيت وجه سندس، زوجة اخي علي، تطل عليّ بعينيها الناصريتين، السوداوين، وابتسامتها الواسعة. ورايت وجه الدكتور ذاكر يترجرج من خلال الطيات المتعرجة لأجفاني المتهدلة على وجنتي. وجوه تتعاقب على وجهي. أخي علي. كمال. خالي ذياب. أحمد الأعرج. سعيد يطبع قبلة على جبيني. لم أستطع قراءة تعابيره. فهو عصي على القراءة. وجه لمياء وكان يسكب مياها، تتكور على شكل قطرات مثل المطر الربيعي الذي كان ينهمر على بلور النافذة.

إنني في مستشفى. هذه أول التماعة وعي عادت الى رأسي. والمستشفى ليس في البلدة. هو في مدينة الرمادي. الضجيج ليس ضجيج بلدة، بل ضجيج مدينة. لا أرى سوى اللحظة الحاضرة. أنا مصاب اصابة بليغة. كل عضو في جسدي يؤلمني. حتى شعر رأسي. لكنني لا أستطيع الحركة. جسدي مربوط من كل جوانبه. من الأعلى والأسفل. من اليمين والشمال. ماذا جرى لي. أنا محمد بن الحاج حسين الذي يحمل بكلوريس اقتصاد محاسبة من جامعة بغداد. أنا الذي كان مثالي الأعلى أخا لي اسمه سعيد. رحل عنا ذات سنة، تاركا لنا مكتبة ضخمة فيها مئات الروايات، وكتب النقد والشعر، والدراسات، والكتب التراثية والسياسية. الكتب السياسية جمعها اخي علي قبل ان يقطن في الرمادي ووضعها في كيس من أكياس الاسمنت ثم دفنها في الحديقة. لم يشأ احراقها خوف أن تثار تقولات

في المنطقة، ويساور الحزبيون الشك في أمر الكتب. أخي سعيد الذي افتقدته عشرين سنة. عشرين سنة والحامضية تعيش على أخباره، وقصصه، وحكاياته. اصدقاؤه حوّلوه الى أسطورة. أعداؤه كانوا يحترمون غيابه. نحن أسرته نفتخر به فيما بيننا، ونعده بطلا استطاع الإفلات من الموت. لكننا نتنكر له أمام الآخرين. آخر مرة استدعاني فيها مدير أمن الرمادي، وكان ذلك قبل دخول الأميركان بأشهر ستة، طلب مني التوقيع على ورقة تقول إنني الموقع أدناه أستحق عقوبة الإعدام اذا ما عرفت أي شيء عن سعيد ولم أبلغ السلطات المختصة. ووقعت صاغرا على الورقة. وقع أبي قبل ذلك على ورقة مماثلة. اكتشفت لاحقا أن علي وكمال يعرفان جيدا أين يقيم. لكنهما أخفيا الأمر عنا، أنا وابي. أخفيا الأمر عنا حتى انهيار الدولة، ودخول الجيش الأميركي الى الحامضية.

اول مرة صدقنا أن عهدا جديدا بدأ في العراق حين شاهدنا المدرعات الأميركية وهي تقف على جسر الرمادي. قبل ذلك لم نكن نصدق أن رئيسا آخر غير صدام حسين سيحكم العراق. قلنا لهما لماذا لم تخبرانا عن مكان سعيد؟ قالا خفنا أن تضعفا أمام مدير الأمن وتخبراه عن حركاته ومكان عيشه. كان سعيد في الخمس سنوات الأخيرة يعيش في سورية. ترك بريطانيا وعاد الى مكان قريب من العراق كما قال. عرفت أنهم اتصلا به تلفونيا أكثر من مرة. كيف حصلا على التلفون؟ لست أدري. أول شيء قام به سعيد، بعد أن خف مجيء الزائرين الى البيت، هو زيارة المقبرة. قال لي ولكمال أريد أن أرى الأموات. اريد أن أعرف أسماءهم. الأموات الذين غادروني خلال

عشرين سنة. أولئك الذين عاقرهم في كؤوس وأطباق طعام ووجوه نساء وأمواج بحار وعربات قطارات. في مدن ورحلات وفنادق وقارات بعيدة عنا. كان يراهم من خلال المغني شفان، وفيروز، وداخل حسن، وأم كلثوم، وبوب مارلي، وكاظم الساهر، وصديقة الملاية.

كان يراهم من خلال أوراق الخريف في لندن، وثلوج الدانمارك، وكاتادرائيات برشلونة، وقلاع دمشق التي تؤرخ للمماليك والإسماعيليين والعلويين والدروز. كان يراهم كما قال لي في كل صفحة من الكتب التي قرأها بالانكليزية والبرتغالية والاسبانية والألمانية والعربية. كان كما قال يرى الحامضية، وطوال عشرين سنة من غربته، في القرميد الأحمر والخنازير المشوية وأشجار الجوز البري وواجهات البنايات العالية المصنوعة من الزجاج والقطارات السريعة والسفن الضخمة المسافرة بين البحار. كان يراها في الأبجديات، والحروف اللاتينية، والطباعة الأنيقة للمجلات والألبومات التي تروي لوحات الفنانين في العصور المظلمة. كان يراها في الأفلام الهوليوودية والايطالية واليابانية والأميركية اليابانية. كان يراها في كل مكان، ويستشعرها، ويتنفسها في هواء برلين، وباب توما، وجبال الأنديز، وساحات ساوباولو، وعرائش السلمية المصنوعة من التين والعنب. وكنا نعتقد أنه نسينا. نسي مطحنة أحمد الأعرج، وجزر الرمل في الفرات، وجسر الرمادي الكبير، وليالي دكان عواد المصنوعة من الدومينو، والحلقوم، والسينالكو، وقصص النساء في بغداد والموصل التي يرويها الجنود العائدون من معسكراتهم.

ظنناه نسي مدرسة المعرفة التي تخرج منها، ونسي باص الملا، وحقول البطيخ، وعيون البقر السود في ظهيرات الصيف، وتمور النخيل في بساتيننا. نسي الزهدي والخستاوي والبربن والدقل وأصابع العروس والحمراوي والعوّين. قلت له بعد أيام من عودته، وكنا جالسين في الصالون: هل تعرف ما هو العوّين؟ قال طبعا إنه اللوبياء. وراح يسرد لي كم مرة تذكر حقول العوين التي كنا نزرعها بعد كل فيضان للفرات. قادتني ذكريات أخي سعيد الى نفسي. بدأت ذاكرتي تنشط قليلا قليلا. تستعيد العالم الماضي الذي خرجت من أتونه. تذكرت ابني أحمد وابني حسين وبنتي بثينة.

وشيئا فشيئا تذكرت أبي وأمي وكمال وحسن ولمياء ونجاة وعمي حسن وبيت خالي حماد والطائرة التي شاهدناها تحترق فوق نهر الفرات.

كم يوما لبثت راقدا في هذا المكان الذي يدعونه مستشفى؟ ماذا جرى لي؟

آخر مرة كنت فيها في البلدة هي حين نظرت اليها من عل، وانا اقف على سطح بيت عمي حسن. قبل زمن لا استطيع تقديره جاءت امرأة كهلة، وسكبت في حلقي شوربة خفيفة ذات طعم مالح. لم أستطع فتح فمي. كانت تدخل الملعقة بين شفتي بيديها، ثم تسكب السائل في زردومي. الأطباء رسل الله قلت نفسي. ماذا نفعل بدون أطباء وممرضات؟ ذات صباح حضر الى المستشفى الدكتور ذاكر ولمياء وأخي علي. قالوا هيا سنخرجك من المستشفى. كنت بالكاد أستطيع الوقوف. اتفق الدكتور ذاكر مع الطبيب المسؤول

حول أخذي الى البلدة. هناك يستطيع ان يعالجني بين ناس آخرين. ركب علي في مقدمة المارسيدس وأركبوني في الحوض الخلفي وأنا اسند رأسي على لمياء. بعض اللحظات تغيب كافة الأسماء عن عقلي فلا أعود اعرف شيئا. لا الوجوه ولا أسماء الشوارع، ولا نوعية الأبنية. وفي لحظات ثانية، يشف العقل في داخلي، فأسترجع قليلا قليلا ما مر من أحداث.

كنا جميعا صامتين. سلكنا الشارع العام المؤدي الى الجسر. وجدنا ازدحاما هائلا.

الجنود الأميركان يقفون على رقبة الجسر ويفتشون السيارات الداخلة الى الجسر بدقة. في الآونة الأخيرة انتشرت ظاهرة السيارات المفخخة التي يقودها الانتحاريون. فجروا قبل شهر مدخل المحافظة. وفجروا مديرية الشرطة. وحاولت سيارة قبل اسبوع اقتحام باب القصر الرئاسي الذي اتخذه الأميركان قاعدة عسكرية. جاء دورنا في التفتيش. سأل الجندي الأميركي الدكتور ذاكر فأخبره انه طبيب في مستشفى الرمادي. حدق الي وسأل الدكتور: هل هو ارهابي؟ قال له ذاكر بالانكليزية، كلا، أصيب بقصف في بلدة الحامضية. قال له الجندي الأميركي: كان ذلك خطأ. هل انتشر خبر القصف بهذه السرعة؟ لم يعلق ذاكر. وسمح لنا الجندي بالدخول الى الجسر. حين اتجهنا نحو اليمين بدأت آفاق النهر تتفتح أمامنا. جزيرة الطرفاء وسط النهر بدت لي غريبة. كما لو غادرتها سنوات بكاملها. نخيل البوفراج. البيوت القلقة المنزوية مع بقرها وسياراتها وتنانيرها تحت نثيث مطر الشتاء.

من بعيد تراءى لي بستان علي النجرس. ومشروع الماء. والجسور القريبة من الصحراء التي يخترقها الطريق الدولي.

سألتهم بصوت خائف:

- من مات في القصف؟ هنيهة صمت ثقيل. تكلم ذاكر بهدوء عميق. بدأ يتكلم من منطقة داخلية مجهولة لي. نضج ذاكر كثيرا في السنتين الأخيرتين. كلنا نضجنا. الحياة لم تعد نزهة في هذا البلد.

- رأيت خلال سنوات مهنتي مئات الأموات والقتلى. الموت حق على بني البشر. من لم يمت اليوم فغدا وهذه سنة الحياة. لا أحد يخلد على الارض. صار الموت واحدا سواء بيد المجاهدين أم بيد الأميركان. قلنا لأنفسنا ما دامت الحكومة الظالمة قد رحلت ستأتي حكومة عادلة ونعيش بسلام دون حروب. دون جيش شعبي. دون أحزاب وتقارير ووشايات. لكن على ما يبدو أن هذا البلد مصاب باللعنة. لعنة الدم الذي لا يريد أن يتوقف. اميركا لم تسقط صدام حسين لعيون العراقيين. لها مصالحها وخططها. كان القتل مقصودا. لايقاع اكبر عدد من الخسائر. والا الم يفتشوا البيت؟ الم يروا الأطفال نائمين في الغرف؟ وليس هناك من سلاح سوى مسدس ورشاش كلاشنكوف للدفاع عن النفس؟ لماذا استهدفوا بيت حسن اذن؟ ربما لأنه أعلى بيت في البلدة. وربما لانه افخم بيت فيها. قالوا بروح الكابوي سنجعل من هذا البيت مثالا على جبروتنا. الضربة باختصار انتقام لمقتل جنودهم في المروحية وحرقهم.

- من مات غير أولاد قيس؟

- تعرف ان الصاروخ الثاني هو الذي أحدث المجزرة.

- لم اسمعه ينفجر.

- طبعا لم تسمعه. وهل يسمع انسان صوت انفجار صاروخ تحت قدميه؟

- كم العدد.

- ثلاثة عشر.

- هل بينهم من عائلتنا.

- احدى عشر فقط.

- يا ويلتي. من هم؟

- تماسك. أعصابك. فأنت يفترض أن تكون من بين الأموات. لكن صدق من قال: لا يموت الشخص مهما جرى له الا في ساعته المقدرة.

- هل مات أبي؟

- أبوك حسين. عمك حسن. حسن ابن أخيك كمال. نور بنت محمد الحاج حسن ابن عمك. أنور. عمر. سلمى. رائد ابن جمعة الزيدان. مؤيد ابن الحاجة امينة. عثمان ابن خالك حماد. وعلي ابن جمال الابراهيم. وهناك قاسم بن محمد العيد. وسمير ابن قتة. والأخيران لموتهما قصة عجيبة.

- يا ويلاه. كل هذا العدد. والجرحى؟

- أكثر من ثلاثين جريحا.

- وأينهم؟

- في بيت احمد الأعرج. جمعناهم هناك لكي تسهل علينا معالجتهم مرة واحدة. الحامضية كلها مشغولة بالمآتم وزيارة الجرحى. لذا حاول ان تتماسك وتتقبل الأمر باعتباره قدرا من الله.

اغمضت عيني. لا اريد ان ارى الطريق. لا اريد ان ارى اشجار النخيل، ولا نهر الفرات المحاذي للطريق. لا أريد رؤية حمام الحامضية، ولا بيوتها، ولا جامعها. كل فرد من أولئك الأفراد كان يعني لي قصة طويلة، وتاريخا مليئا بالتفاصيل. لم يعد لي طاقة للبكاء. الفاجعة أكبر من الدموع والحزن واللوم. كل ما أشعر به هو أن صدري صار شبيها بقنبلة. وعدنا أخي سعيد بديمقراطية هائلة مثل السويد وسويسرة وبريطانيا. وعدنا بالعمل الوفير والصحف والأحزاب والانتخابات والحكومة العادلة. قال خلال خمس سنوات سنصبح دولة تشبه سويسرة. لكن لا نرى علامة على ذلك. العكس هو الصحيح فالأمور تزداد سوءا وانحدارا. هل أن ما يجري لنا مخطط له أم هو نتيجة طبيعية للأهوال التي مررنا بها؟ الحروب والحصار والوشايات والظلم والتفرد بالسلطة؟ الأسئلة تتوالد في رأسي المشوش وأنا انظر الى الطريق والضفاف والأشجار وطيور النوارس التي تصطفق اجنحتها فوق مياه الفرات الصفراء.

السوق هناك على حاله. شباب وسيارات. وحركة غير عادية. الحياة لا تتوقف. أجساد الخراف معلقة في خطاطيفها وسط دكان الجزار. محل الأدوات الزراعية مغلق. الأطفال يتجمعون على شاشة تبث شريطا لمعارك الفلوجة. واضح، ودون أن أرى الشريط بأنه مدبلج بذكاء شيطاني.

قبل أن نصل جامع الزبير مال ذاكر الى اليسار، نحو طريق ترابي قادنا الى بيت أحمد الأعرج. بيت أحمد فخم من نمط الدبل فاليوم. أخبرني علي أنني قضيت أسبوعا في المستشفى. أدخل ذاكر

السيارة في الممر الاسمنتي. وكان باب الصالون مفتوحا، وثمة رجال ونساء يقفون أمام الباب. يبدو أن الجميع كانوا على علم بخروجي من المستشفى. حتى سعيد كان واقفا أمام الباب.

أدخلوني في الصالون. وجدت مصابين آخرين يتمددون على ارائك، وفي الأرض. لم أركز ذهني على أحد منهم. وضعوني في فراش جانبي على الأرض. ووضعت رأسي على المخدة. كنت أشعر باعياء كبير. اعياء في الجسد والروح. جلس سعيد قرب سريري، وكان يحدق الى وجهي المشوه بحنان وأسف. أحسست به يبكي، لكنني لم أر دموعا. كنت كمن يسبح في سفينة، تتقاذفها أمواج عاتية، وسط بحر محيط. ما نفع الشعر والروايات والقصص والنظريات والصحف، أمام هذه الوحشية التي نعيشها. اسماعيل بن سعيد صار أميرا للجماعة، وهو لم يقرأ صحيفة في حياته. وذلك الطيار قصف بيت عمي حسن، وهو رأى عيانا مئات البشر الذين جاءوا لانقاذ من هم تحت الانقاض، وهو بالتأكيد قرأ الصحف، ودخل المراقص، وشرب الشامبانيا، وعاش ساعات طيبة مع روايات هنري ميلر وآرنست همنغواي، وشاهد فيلم سائق التاكسي والمريض الانكليزي وكل أفلام شاري شابلن، وتمتع بموسيقى الجاز التي يعزفها آرمسترونغ. ما الفرق بين الاثنين؟ ما الذي ستكتبه يا أخي سعيد في صحيفتك البغدادية عن هذه المجزرة الديمقراطية؟

الأصوات. الحكايات. روائح الطعام. روائح الأدوية. وكان كل شخص في المكان يروي قصته عما جرى لنا في تلك الظهيرة. الظهيرة الأخيرة قبل عيد الفطر. كنت وخلال ثلاثة أيام قد تحولت الى اذن

فقط. لا طاقة لي للكلام. لكنني أسمع الأحاديث التي تدور خلال ساعات الليل، والنهار. وكأن ما يجري في البلدة يعرض على شاشة واسعة. المخططات الأولية لرأسي، كما قال الدكتور ذاكر، لا تشير الى اصابة خطرة في الدماغ او الرأس. الأشعة لم تكشف اية شظايا في وجهي. فقدت بعضا من الأسنان فقط. لكن ورم رأسي باق. الأصوات تصلني مشوشة. قد تكون هذه ردة فعل جسمي على العالم الخارجي. جسمي لا يريد أن يتواصل مع الخارج، الخطر والمميت.

اسمعوا هذه الحكاية قال أحمد الأعرج: كلكم تعرفون حي التأميم، قرب جسر الورار. الأستاذ علي يقطن هناك. هل تعرفون ماذا وجدوا على المزبلة القريبة من دائرة العلف الحيواني؟ وجدوا قبل يومين جثة شرطي. المسكين تطوع لكي يعيل اسرته ويدبر شؤون حياته. كتبوا على قطعة من الكارتون كلمة عميل، وعلقوها برقبة الكلب. وتستغربون ما علاقة الكلب بالشرطي. هنا تكمن الحكاية. ظل أخونا المجاهد، نصره الله ورعاه، يوما كاملا وهو يبحث عن كلب سائب. فتش قرب جسر الورار. نقب في مستنقعات حي التأميم. تجول في مقصبة الرمادي التي تطلق الروائح الكريهة. وأخيرا عثر على كلب مريض قرب بيتهم. قتل ذلك الكلب في وقت الغروب وقص راسه بسكين حادة كانت في جيبه ثم وضعه في كيس من النايلون الأسود. وذهب الى بيت جماعته. هناك كان الشرطي المسكين قد اختطف وعذب ثم قطعت رأسه وألقيت في النهر. وجاء ذلك المجاهد بابرة وخيط غليظ مثل الذي نخيط فيه أكياس الجنفاص أيام المطحنة، وسهر الليل بطوله وهو يخيط بأناة ودقة وصبر

رأس الكلب المسكين الى رقبة الشرطي العميل. تخيلوا هذا الصبر على عمل مثل ذاك. وتخيلوا القلب الميت الذي يحمله بين أضلاعه. وحين أذن الفجر، صاحبنا المجاهد أنجز عمله واستغفر ربه ثم توضأ وصلى الفجر مع دعاء حار بنصرة اخوته المجاهدين في افغانستان وفلسطين والعراق. وقبل أن تطلع الشمس على مدينة الرمادي حمل كيسا كبيرا فيه الشرطي برأس الكلب وتخطى شارع الفاروق ثم وجد فسحة بعيدة عن البيوت والقى جثة الشرطي على التراب. ترك قطعة الكارتون وعليها كلمة عميل مثبتة على رأس الكلب.

هل يستطيع أحد منكم أن يقول لي كيف هو الجهاد؟ هنا نعود الى أصل الحكاية؟ كثر الله خيرهم انهم تركوا الرؤوس على الأجساد لنتعرف عليهم. يذكر محمد حين أخرج جثة ابني سلام من مقبرة الماء. يبدو أن الجهاد تطور هذه الايام ليصبح قطع رؤوس.

كان الأعرج يتكلم بحرارة الى الموجودين في الصالون الكبير المسدل الستائر. يهز عكازه المصنوع من الألمنيوم بوجه عدو ما. لا يريد أن يتوقف عن الكلام. والجميع صامتون. انت يا بطل، وقفت جنب بيت المرحوم حسن وبدأت تطلق النار على الأميركان، كيف لم يدر بخلدك انهم سيردون عليك وستقع القذائف في بيت حسن؟ ام انك كنت تقصد ذلك لأن حسن رجل لا علاقة له بالجهاد والأميركان والمقاومة والدولة. اهم ما عنده هو عمل حضاراته وترتيب بيته وتزويج ابنائه الشباب. المقدر كائن قال خالي ذياب وهو يتكئ على مخدة من الصوف ليس بعيدا عن ابنه رسول. خذوا قصة حسن بن كمال. ارسلوه لجلب المطرقة الثقيلة من بيت محمد العباس، لكي يفتتوا بعض

الاحجار عن الأجساد في الطابق الثاني. كان بالكاد قد دخل البيت حين جاء الصاروخ الثاني. لو تأخر تفتيش زوجة طارق عن المطرقة في ثنايا البيت دقيقتين لكان نجا وعاش بيننا الآن. رأيته وهو يركض حاملا المطرقة وكأن جميع المصابين يتعلق مصيرهم به. الآن يرقد في المقبرة. حامد وخلدون. كانا اتفقا على الذهاب الى الشامية وعبرا بالقارب الى الضفة الثانية. وكادا ان يستقلا واحدة من التاكسيات الموجودة على الشاطئ لكن حامد وقف فجأة وقال: لماذا نذهب الى الرمادي؟ ليس هناك سوى المواجهات والانفجارات والموت، لنرجع الى الحامضية. ثم اقنع خلدون بالرجوع وعادا في القارب نفسه الى البلدة واتجها مثل منومين الى السوق. وفي هذه اللحظة انفجر الصاروخ الاول في بيت حسن، وركضا دون توقف الى مساعدة الجرحى وانتشال الجثث من بين الانقاض. وفي تلك اللحظة الخاطفة جاء الصاروخ الثاني وحملهما سوية الى السماء.

هنا نسأل لماذا عادا وهما قد عبرا الى الضفة الثانية وكادا ان يركبا في التاكسي؟ الجواب واضح. هناك قدر مكتوب يجب ان ينفذ. الموت ينتظرهما في بيت حسن بن حميد وليس في مكان آخر. هو الذي وسوس لهما بالرجوع الى البلدة. هناك قدر للعراق ان يحتله الأميركان ويجلبوا معهم كل هذه المصائب التي حلت بنا.

ياحاج ذياب، قال أحمد الأعرج بصوت حاد: متى كان العراق من دون مصائب؟ منذ دخلنا الحرب مع ايران قبل خمس وعشرين سنة ونحن نتنفس المصائب. اذهب الى مقبرة الحامضية وشاهد بعينك عشرات القبور لشباب ماتوا في تلك الحرب اللعينة. تلك الحرب هي

التي فتحت علينا ابواب الموت والخراب والجثث والصواريخ. تتذكر يا استاذ سعيد كيف كنا نعيش في أيام الخير قبل ان تحل بنا الكوارث؟ لعب دومينو، وسباحة في الفرات، وحب وغرام، وزراعة الحنطة والشعير، والتجارة بالبقر والدراسة والرياضة والعاب الليل في ضوء القمر. ما ان دخلنا الحرب مع ايران حتى انفتحت ابواب جهنم علينا. يوميا يجلبون لنا جنديا قتل في الجبهة. يوميا يعود واحد من ابنائنا جريحا. عدا عن الفارين والمتخلفين عن خدمة العلم والفواتح والتوابيت والقصص المرعبة التي كنا نشاهدها في التلفزيون عن كل هجوم يحدث على الجبهات. في تلك الأيام، قال خالي ذياب، كان عدوك واضحا، لكن اليوم لا تعرف من هو عدوك. الأميركان. المجاهدون. المقاومة. الأحزاب الجديدة. الشرطة. الحرس الوطني. العملاء. العرب. الأجانب. القاعدة. البعثيون. جماعة بدر. جماعة جيش المهدي. جماعة احمد الجلبي. الحزب الاسلامي. ومئات الأسماء والمسميات التي اصبحنا نحير حتى في تذكرها او حفظها.

جاء ذاكر وبدأ بتوزيع الأدوية على المصابين. اول ما ابتدأ بالنساء. كان يحمل الحبوب والابر والمسكنات والحقن المضادة للتسمم والفاليوم المنوم. وكان رأسي تحول الى طبل. كان الكلام يهطل على اذني من كل حدب وصوب. والجميع يتكلم بعض الأحيان باللحظة نفسها. طلبت من ذاكر اعطائي حبة فاليوم فأنا اشعر بحاجة الى نوم عميق، اغادر هذه الضوضاء حولي واغادر القصص المشوشة التي يتكلم بها الجميع.

اخذت حبة فاليوم واحسست بانني بدأت انسحب الى غيهب من الضباب. لم اعد اميز وجوه الداخلين الى الصالون او الخارجين. اختلطت كلمات خالي ذياب بكلمات احمد الاعرج. وآخر ما تذكرته قبل ان اسقط في عالم النوم الوردي دخول مجموعة من الرجال كانوا يرتدون الكوفيات البيض والعقل والعباءات الصوف المذهبة، وقد وفدوا من قبل اقربائنا القاطنين في الجهة المقابلة لبستان حتوش.

جاءوا لزيارتنا، لكنني كنت قد غادرت عالم الاحاسيس الى دهليز طويل ساكن مثل سطح الفرات في صيف قائظ.

◆◆◆

قضيت الليل اقرأ في الصحف التي جلبها سعيد من العاصمة. منعوا كل الصحف في الرمادي. لا يرغب المجاهدون في تلويث عقلية أهل المحافظة بأفكار العملاء القابعين في المنطقة الخضراء، كما جاء في منشور المنع الذي علق على جدران مسجد الرمادي الكبير، والثانويات، وعلى واجهات الأبنية في الشوارع. اصبح التلفزيون هو ما يربطنا بالعالم، بعد هذا المنع. نسفوا ابراج الموبايل وعطلوا شبكة الهاتف الأرضي. في العصر الفائت، عند محل عماد، وكنا نقف جنبه، برر أحدهم ذلك، بقطع الطريق أمام الجواسيس والعملاء، كي لا ينقلوا تحركات المجاهدين للأميركان. المجاهدون لديهم تلفونات ثريا تعمل على الأقمار الصناعية. أصبح الاتصال بسعيد وزوجته مستحيلا. لذلك لم نعد نعرف أخبارهما الا حين يزوروننا في

الخميس. يبدو ان سعيد يفكر جديا بمغادرة العراق. أحسست ان اليأس بدأ يغزو روح أخي سعيد، من الوضع كله. هذه المرة بدأ يخاف من الموت. تحدث عن نشاط الميليشيات الطائفية والتفجيرات المتزايدة في أسواق بغداد وشوارعها. قال انه لم يعد يخرج مع طفله وزوجته الى المدينة بعد عودته من العمل. كان يشعر انه مهدد. بدأ أيضا يخشى من تنامي نشاط المجاهدين المتزايد في البلدة. وفي بغداد وبقية المناطق. التفاؤل الذي عاش في داخله منذ رجوعه الى الوطن صار يشحب يوما بعد آخر. لمست ذلك اليأس من خلال الحوارات التي كنت اسمعها تدور بينه وبين علي وكمال اثناء ما كنا نجلس في صالون كمال الداخلي. عادة ما نشاهد التفجيرات الهائلة في بغداد، والمواجهات العسكرية بين الشرطة والمسلحين في الموصل والرمادي وبعقوبة. ونرى الحرب الطائفية بين السنة والشيعة. ورغم أنني لا ادرك بالضبط ما يفكر فيه أخي سعيد الا أنني احسست انه لم يعد مرتاحا في وظيفته، ولم يعد متفائلا ببقائه طويلا في البلد كله. دوره بدأ يتلاشى في عمل شيء للوطن كما قال. هناك موجة دينية عاتية تزحف نحو تفاصيل الحياة في كل شيء. في الملبس والمأكل والتعليم والصحف والتلفزيون وحتى في الوظائف الحكومية. احسست ذلك ايضا من خلال اعمدته الصحافية التي كتبها في الجريدة خلال الاسابيع الماضية، اذ حملت كلها روحا تشاؤمية ونقدا حادا لما راحت تسير عليه الأوضاع. قال انه بدأ يحس بصعوبة الوقوف في وجه هذه الموجة. خاصة وان أي شخص يقف في وجهها يمكن ان يقتل. موت أهلنا في البلدة صدمه بعمق، وتحدث بغضب عن تعامل الأميركان مع

العراقيين. الأميركان صاروا أكثر شراسة. قبل أسبوع كاد أن يقتل هو وزوجته أثناء ما كان يقود السيارة الأوبل في حي الشعب. لو لم يضغط على الكابح بسرعة لقتله الجندي. ربما ظن انه انتحاري. كل ذلك لانه اقترب من القافلة أكثر مما يجب. لم يعد الفرد آمنا على حياته اينما أدار وجهه. لا يستطيع ايجاد الحماية لا من الأميركان ولا من المجاهدين، اما الدولة فتسبح في غيبوبة، وصراعات طائفية على المناصب، وقيادة الاجهزة الحكومية.

شعرت بسعيد يودع البلد بطريقة أو بأخرى.

هو الذي اقترح علينا زيارة المقبرة التي دفنا فيها ضحايانا قبل أسابيع. زار المقبرة بعد بضعة أيام من رجوعه وكان في منتهى التفائل. وسيزور المقبرة وهو في قمة تشاؤمه من الوضع. هل هي زيارة وداع؟

انا لم ازر المقبرة على الاطلاق، فحين دفنوا القتلى كنت اسبح في غيبوبة لذيذة في مستشفى الرمادي العام. حتى الذين ساهموا في الدفن ذلك اليوم كانوا يستعجلون مواراة الضحايا والرجوع الى البلدة فهم لا يأمنون مهاجمتهم من قبل النقاط العسكرية الاميركية المنتشرة على الطريق السريع، أو من قبل طائرة عمودية او مقاتلة بحجة انهم ارهابيون. كل شيء صار جائزا في هذه السنة.

قال أخي علي معترضا على الذهاب الى هناك، انهم اذا ما لمحوا سيارات متجهة الى المقبرة قد يفكرونه هجوما، او تجمعا للمجاهدين.

وجد كمال حلا ملائما. قال سنأخذ معنا قطع قماش أبيض نرفعه على السيارات. الجنود يرصدون الطريق والمناطق الشاسعة

المتخمة للبلدة بمناظير مقربة. وحين يرون الرايات البيض يدركون اننا جئنا لزيارة المقبرة. لاقى اقتراح كمال موافقة الجميع. طلبت امي الذهاب معنا لرؤية قبر أبي لكننا رفضنا. لا نعرف ما سيحدث. ليس هناك ضمانة لعدم مهاجمتنا. غياب ابي ونورة وحسن وعمي حسن والآخرين ظل لي اشبه بالحلم. لم اكن شاهدا على دفنهم، وهذا ما جعلني اشعر وكأنهم ما زالوا على قيد الحياة. اكثر من مرة وحين اخرج الى الحديقة والمح طفلا خارجا من بيت كمال اعتقده حسنا، للوهلة الأولى. وكل مرة يطرق الباب الخارجي اتوقع اطلالة عمي حسن من الباب، كما كان يفعل ذلك دائما. اما ابي فكنت افيق احيانا في الليل واتطلع مباشرة الى الناحية الاخرى من الصالون، معتقدا انه ينام هناك كعادته. وكنت اريد ان امحو اسم احمد ابني عن قبر حسن. الذين حملوه الى المقبرة ظنوه ابني احمد فهما متشابهان بالجسم والملامح. ملامح ابناء العمومة الذين يتحدرون من صلب واحد.

كل هذه الهواجس كانت تدور في رأسي وأنا ارى ضوء الشمس الذي تسلل من الستائر المخملية الثقيلة في الصالون. جاءني صوت عروس النخيل من نخلاتنا في الحديقة. وثمة أصوات لمزامير سيارات تجري على الطريق. صوت مضخات المياه الذي كنا نسمعه قبل عشرات السنين، وفي مثل هذه الساعة، اختفى اليوم. لم يعد هناك كهرباء لتشغيل مضخات الماء الحديثة.

رائحة الشتاء تنتشر في الصالون. رائحة عشب أخضر ندي. الشمس تشرق مثلما فعلت ذلك حتى قبل تأسيس البلدة. هذه الليلة نمت جيدا ولم ار سوى كابوس وحيد. فقد وجدت نفسي تحت الماء،

احدق في كائنات بشرية تسبح مثل السمك. ما كان مرعبا فيها هو هيئاتها غير المكتملة. بعضها بلا رؤوس وبعضها بيد واحدة، وبعضها لم تزل آثار الدماء على رقابها. شعرت بالراحة حين ادركت انني انام على فراشي في صالون بيتنا، ولست تحت مياه الفرات. وقتها سمعت صياح ديوك جاء نائيا. وهذا يعني انني ما زلت حيا، وما زلت اتمتع بوعي طبيعي.

فاق كمال بالتأكيد منذ الفجر.

لم تمطر اليوم ولم تمطر البارحة ولم تمطر منذ اسبوع. سيكون الطريق جافا، وهذا جيد. سهرت حتى الواحدة في الصالون اقرا الجرائد التي جلبها سعيد من بغداد. بعضها اسلامي وبعضها يساري. خليط من المقترحات والآراء والتعليقات، كلها تقترح حلولا لما نحن عليه. الأكيد في تلك الجرائد هو أن كل حزب يريد أن يصنع الوطن على هواه. كل واحد من الأحزاب يطرح حججا مقنعة للخلاص من النفق المظلم. الحجج جميعها مقنعة. غير ان لا أحد منها يوقف القتل والتفجيرات والهجرات التي بدأت تتزايد. يؤكد ذلك الطريق العام الممتلئ بالراحلين الى عمان ودمشق وأرض الله الواسعة. كل ابناء البلدة يتناقلون مشاهداتهم عن الفرار الجماعي الذي يحدث على أطراف البلدة.

كان الهدوء يخيم على البيت. انهم نائمون بالتأكيد. صوت نواح نجاة على ابنها حسن ارتفع في الصباح ثم انقطع قبل قليل. لابد انها كانت تجلس في البالكون الأمامي، أو الحديقة محدقة ببيت عمي حسن الذي تسبب بقتل ابنها. طلبوا البارحة من سعيد ان يبحث لهم

عن صور لحسن في البوماتهم التي اخذوها الى بغداد. لقد صور سعيد وزوجته عشرات الأفلام اثناء صيف رجوعه من الخارج. قال سعيد انه سيحملها ثانية معه اذا ما جاءت الهجرة الثانية، وكأنه كان يتنبأ بما ستأول عليه الأحداث لاحقا.

نجاة وكمال، وما أن ينام الجميع حتى يبدآن طقسهما الليلي.

تجلب نجاة كل ما يتوفر تحت يديها من ملابس حسن وتكومها على السرير. تجلب أيضا أصباغ الرسم والصور القديمة والكتب الانكليزية التي جلبها سعيد من شارع المتنبي مع المصورات البلاستيكية، ثم يجلسان جنب الكنز الثمين ذاك ويبدآن التحاور والبكاء. هذه البلوز، تقول نجاة، اشتريتها من سوق التأميم القريب من بيت علي. هذه البيجامة من نوفوتيه طالب. القميص من أحد محلات المنصور أثناء زيارة بيت سعيد. الحذاء الصيفي أهدته مها له بمناسبة نجاحه في الدراسة. وحين تتعب نجاة يرفع كمال صورة قديمة لحسن وهو يحبو، ثم ينسج قصة لتلك الصورة ومتى أخذت وفي اي مكان. وهكذا. بعد الحادث يتم الأمر كل يوم. وبعد اسابيع تباعدت الجلسات الليلية تلك حتى نهرهما أخي سعيد وقال لكمال: يكفي هذا الجنون الذي تقومان به. رحل حسن ولن يعود. هناك عشرات الآلاف قتلوا بهذه الطريقة. سعيد منطقي أكثر مما يجب.

البارحة ايضا ذهب اخي كمال الى مقصبة الرمادي واشترى رأس عجل للغداء. اراد أن يعمل وليمة صغيرة لسعيد وزوجته، رغم ان مها غير معتادة على نوعية طعامنا هذه. ستنشغل فيه النسوة هذا الصباح جيدا. كانت امي مبتهجة لانها ستأكل رأس عجل. هذه أول

مرة ارى امي مبتهجة منذ موت ابي. يبدو ان الرغبات والشهوات لا تهتم كثيرا للموت. الحياة تعاود جريانها حتى في احلك الأزمان. اسمع صوت كمال يناديني. اعدوا الفطور بالتأكيد وينتظرون مجيئي. حين فتحت الباب كان الضياء باهرا. رغم كل ما اشعر به ورغم الألم الذي صاحب المجزرة لكنني استمتع برؤية اشجار الكينا وهي تتمايل جنب الباب الرئيسي. وكانت هناك غيمة صغيرة تركض في السماء حيث يقع بستان حتوش. سيارات في الطريق تأتي من الرمادي او تذهب اليها. الشباب يتجمعون في الدكاكين على الطريق. وذهب المؤذن حمادي الى الجامع.

قطرات ندى متلامعة ما زالت تحتل وريقات العشب والثيل في حديقتنا. أشجار الآس كانت تنث رائحة عطرة. لم نسمع اي انفجار او قصف منذ ليلة امس.

بيت عمي حسن يتكوم على نفسه، كلما نظرت اليه تعود الي تلك الساعات الأليمة التي غيرت حياتنا. وجدت علي ينظف سيارته، وكمال يجهز القماش الأبيض، وقد تناول سعفة من النخلة المنتصبة على كتف الساقية، وجرد خوصها وقطعها الى قطعتين، اما اخي سعيد فكان واقفا في الممر يراقب البلدة. كان دائما ما يقول انه لا يصدق عودته ثانية الى الحامضية، ويعتقد بعض الأوقات انه حلم لا غير. طبعا غاب اكثر من عشرين سنة. زواياه في الجريدة عادة ما ترصد حنينه وتحولاته خلال سنوات الغياب تلك. كانت موضوعه المفضل. يريد أن يعرف كل شيء جرى في غيابه. كان يسال عن النساء اللواتي تزوجن. واللواتي متن. ومصائر العوائل التي كان يعرفها

جيدا. ومصير البساتين التي ازيلت عن وجه الأرض، ومضخات المياه والطرق المندثرة وتحولات المدرسة الابتدائية التي درس فيها صغيرا.

قال يوما انه يقوم بتاليف كتاب سيسميه تحولات بلدة، يعالج فيها فترة عشرين سنة، هي السنوات التي غاب فيها عنا. سيكون بمعنى ما تحولات بلد عاش حروبه كما ينبغي وعليه أن يدفع الضريبة.

هنالك جوانب مجهولة لدى اخي سعيد لا استطيع معرفتها. طبعا. عاش حياة عريضة في كثير من البلدان والقارات. لم يكن سهلا في الحديث. خاصة اذا ما كان يتناول شخصه. الوحيد احمد الاعرج استطاع أن يتوغل في اسئلته معه. رغم ان اجوبة سعيد عن ماضيه يلخصها جدا ولا يتوسع في التفاصيل. حتى قال له أحمد ذات يوم مداعبا: مالك يا سعيد تقطر علينا أخبارك بالقطارة؟ لا يكتب أخي سعيد أي شيء حين يكون في القرية. ولا يقرأ أي كتاب. لكنه يمتلك كومبيوتر في بيته الذي زرناه أكثر من مرة في بغداد. كان بيته يقع في شارع فلسطين. حين أخبر ابي انه يقيم في شارع فلسطين فرح كثيرا. هذا دلالة على أن وضعه المادي جيد. شارع فلسطين، وحي المهندسين بالذات حي للأغنياء والنخبة من أهالي بغداد. اعجبني بيته حين زرته وكمال آخر مرة. بيت يصعد له المرء بدرج حديدي من الحديقة. يمتلك شباكا واسعا زجاجيا يطل على احياء بغداد. حين نظرت الى بغداد من الشباك لم اصدق ان العاصمة تحتوي على هذا القدر من النخيل. وكأنها عاصمة تقوم على قرية مزهوة بنخيلها واشجار نارنجها. في حديقة بيت سعيد اكثر من عشر اشجار نارنج

وزيتونتان. الزيتون وفد حديثا الى بغداد. كان عادة ما يزرع في المناطق الشمالية من الوطن.

سعيد متحمس جدا لزيارة المقبرة. هذا ما لمسته في تعابير وجهه.

كنت خائفا حين ساق أخي علي السيارة التي تقلنا من كراج بيت كمال. سعيد يجلس جنب علي، وأنا وكمال في الخلف. قطعة القماش البيضاء على المقعد، والعصوان يرقدان تحت اقدامنا. خرجت أمي ملوحة تحاول قول شيء لنا لكن علي لم يتوقف. قال علي غاضبا انها تريد مرافقتنا لزيارة قبر أبي. هذا الوقت ليس وقت نساء. عادت الى الأرض الصغيرة داخل السياج التي زرعتها بالبندورة والباميا والباذنجان. رأينا حمادي يتجول في باحة الجامع. ينظف الأرض، وينفض السجاد ويمهد الأرض الواقعة داخل السياج. مئذنة الجامع تسبح في السماء الزرقاء. آثار الشظايا ما زالت واضحة للعيان. لم يكن هناك أحد داخل الجامع فالوقت لما يزل باكرا. احسست أن أخي سعيد بدأ يخاف من المجاهدين. خاصة بعد خطف الأجانب وحز رقاب كثير من المخطوفين. يمتلك ايضا جنسية انكليزية، ويعمل في صحيفة بغدادية، وكل هذه التفاصيل يمكن ان تقوده الى الموت. وجميع أهل البلدة يعرفون انه كان يساريا. كان يتحاشى الحديث عما يجري في البلدة بوضوح. وبالذات امام الغرباء. يثق قليلا بالدكتور ذاكر، لكنه يتحول الى مراوغ حين يتحاور مع أحمد الأعرج أو حين يكون في مجلس عام. بدأ أخي علي يتحدث عن بيته. كان مسرورا جدا من انتهائه من البناء. قال لم يبق سوى السطح، سأزفته وأضع عليه البلاط الاسمنتي فلا يتسرب الماء الى السقف. بدا اخي علي بناء

بيته بعد سقوط الدولة مباشرة. كان راتبه لا يتجاوز عشرة آلاف دينار، بينما قفز الراتب فجأة الى خمسمئة الف دينار. كان مبلغا خياليا، اذا ما وضع راتب زوجته سندس البالغ اربعمة الف فهو يقبض بحدود المليون دينار. قفزة هائلة. منذ أول راتب بعد التغيير اشترى اخي علي قطعة ارض قرب جسر الورار، وصار يفكر ببناء بيت حديث. كان سابقا يقطن في شقة صغيرة بائسة قرب معمل الزجاج.

بيت علي يتألف من ثلاث غرف وصالون ومدخل ومنافع وحديقة صغيرة، أزال ترابها الرملي وجلب لها تربة زراعية من الحامضية، حسب توجيهات المهندس الزراعي عبيد، ثم بدأ يسلي نفسه بزراعة الثيل والباقلاء والبصل. زرع ايضا اشجارا صغيرة من الكينا على طول السياج. كان علي يتلذذ بالحديث عن بيته، فكان يشرح لاخي سعيد المشكلة التي تواجهه وهي انقطاع الماء المستمر. لذلك ماتت شجرتان من اشجار الكينا وذبل بعض الثيل في جزء من الحديقة. والسبب حسب رأيه هو المجاهدون. فهم لا يريدون ان تستمر دوائر الدولة بالعمل. يقول انهم قصفوا دائرة الكهرباء قبل يومين بصواريخ آر بي جي. وقبل شهر اختطفوا مدير بنك الرمادي. وحتى المدرسة التي يدرس فيها لا تداوم سوى يومين في الاسبوع، بسبب المواجهات التي تحصل بين الجيش الأميركي والمجاهدين في المنطقة. اعدادية الصناعة التي يدرس فيها اخي علي اللغة العربية تقع على اطراف المدينة، قرب منطقة الصوفية الريفية.

كان بستان حتوش يعج بالألوان الشتوية.

صفرة الورق تجاور دكنة الأغصان الجرداء التي بللها مطر الليلة الفائتة.

بان الفرات نحيفا مثل خيط عنكبوتي.

سكان مقبرته المائية أخرجناهم بكل خشوع واجلال. عرضناهم في حديقة الشيخ خليل صفا واحدا. وجاء كل من له شخص مفقود. لم يتعرف عليهم أحد. ملامحهم تآكلت. أكلها السمك ورفوش الماء. بدت الجثث للجميع مثل مومياءات مصرية. رغم اعتراضات المجاهدين دفناهم بموكب حزين في القرية. طبعا لم اقم أنا بمهمة اخراجهم، فقد استأجر الشيخ خليل غطاسا محترفا من الرمادي أخرجهم قبل صلاة الظهر.

حين انعطفت السيارة من الطريق متجهة الى المقبرة كان علي يخبر سعيد بتصوره عما يحدث. قال لو كانت الحكومة الجديدة صادقة لجلبت جيشا الى المنطقة ولم تكتف بالجيش الاميركي. نحن نريد رؤية قوات عراقية تمسك بالرمادي لا قوات اميركية. لكن السلطة الجديدة على ما يبدو ترغب في بقاء المنطقة ملتهبة لكي لا تجري فيها انتخابات، وبذلك تغيب أصوات آلاف البشر عن الانتخابات. رأي اخي علي منطقي جدا. لكن من يستطيع الحديث عن الانتخابات اليوم في البلدة؟ سمعت ان احمد الأعرج وصله تهديد من المجاهدين، لأنه كان يتكلم حول الانتخابات. كان طريق المقبرة يجتاز الحامضية من الشرق. على اليمين مبزل مكتظ بنبات البردي. وعلى اليسار بيوت تنتصب وسط الحقول الخضراء. قال اخي كمال

انه سيرفع الرايات البيض حين يقترب من المقبرة. فعلا شق القماشة البيضاء الى قطعتين وثبت واحدة في كل عصا وجهزهما.

الطريق السريع يلوح من بعيد. ذكرنا أخي سعيد بسفرة قمنا بها الى الصحراء قبل حوالي خمس وعشرين سنة. في ذلك الحين لم يشق الطريق السريع. وكنت انا صغيرا حملت لهم الماء والخبز والطماطم وسكائر البغداد. كانت صحراء حقيقية. حيث ما ان يخرج المسافر من تخوم الحامضية حتى تبتلعه الصحراء الممتدة نحو سامراء والموصل والرقة والحدود السورية. حياتنا تغيرت كثيرا خلال العشرين سنة الأخيرة. حتى المقبرة تغيرت. المبازل التي حفرت لتمتص المياه الجوفية المالحة قبل ثلاثين سنة اوشكت على الاندثار. لم يعد احد يزرع الحنطة والشعير والذرة كما في الماضي. علي يسير ببطء. اجتزنا القنطرة الأولى على المبزل، وهي تقريبا الحد الفاصل ما بين حوض الفرات والصحراء. انفتحت آفاق ذلك الحيز الرمادي أمامنا. قبل اشهر فقط كان الطريق، ونسميه طريق المقبرة، يعبره اغلب اهالي البلدة الذاهبين الى بغداد. انه طريق مختصر.

اصوات الحصى وهي تتقافز تحت الدواليب تسمع بقوة. نباتات الشوك تنتشر على الكثبان الرملية الصغيرة. الحاميات الأميركية تعسكر على الجسور الصغيرة وفي عمق الصحراء. طلب كمال من علي التوقف. نزل ووضع العصي في مقدمة السيارة من اليمين واليسار. سنكون في مأمن من رصاص القناصين غير المرئيين، اللابدين على الجسور وخلف سواترهم الترابية. ينبغي ان لا يظننوننا اننا جئنا لنصب عبوة ناسفة او لقصف بالهاون. هذا ما يفعله المجاهدون عادة. نعم

تغيرت ملامح الصحراء كثيرا. بنيت اكبر محطة لتعبئة الوقود جنب الطريق، محطة الشام. ولاحت بنايات حقل الدواجن التي أسسها احمد الأعرج ونسيبه عبيد قبل حوالي عشر سنوات. الحصار أفشل المشروع وتحولت البنايات الى خرائب.

هوجم الاميركان ذات مرة من البناية فقصفوها بالطائرات المروحية.

هناك شجيرات من الكينا ذابلة. وكذلك بئر الماء الجوفية التي نصب عليها مضخة ماء كهربائية لجذب الماء من البئر. اصبح الحقل تاريخا. اشيد الحقل وسط مزرعة عتيقة كانت ايضا من مشاريع الاعرج غير المثمرة. حاول في ذلك الحين، بعد أن تجاوز محنة عشيقته مدانة، زرع البطيخ والرقي في المزرعة لكن الناتج كان ضئيلا. كانت ملوحة الأرض قد افشلت مشروع المزرعة على ما يبدو. في الجامعة، بدأ سعيد يحدثنا. اتذكر يا علي السفرة؟ كنا في الجامعة حين جئنا لنخوض مغامرة في الصحراء. كما كنا نقرأ في الكتب. اكتشاف الصحراء. من كان يعتقد في ذلك الزمن ان يوما ما سيأتي ستصبح الصحراء مواقع للدبابات الاميركية؟ فكرة من المستحيل ورودها في الذهن في تلك الفترة. حتى المقبرة لم تكن سوى قبور محدودة قد لا تبلغ العشرين. اليوم هناك مئات القبور. كنا نحس ان المقبرة بعيدة جدا عن البلدة. اليوم تبدو وكأنها تتوسط البيوت. حدود البلدة اتسعت اكثر من كيلومتر. اصبحت حدودها الطريق السريع، اذ بعده تبدأ الصحراء الحالية. اما ما قبل الطريق فمحطات تعبئة وحقول دواجن وطرق تسير فيها سيارات.

حتى ملامح الأرض تتغير عبر الزمن، قال سعيد ونحن نخرج من الطريق الترابي نحو المقبرة. انها لا تبعد اكثر من مئة متر عن طريقنا. بدأ كمال يبكي بصمت. فيما لم استطع ادراك ما يفكر فيه اخي سعيد. ملامحه كانت خالية من التعابير. يبدو اننا لم نثر حفيظة الاميركان. فلم يطلقوا علينا رصاصة تحذير، كما لم تأت الينا واحدة من الهمرات في مثل هذه الحالات. المقبرة جافة وعارية. ليس مثل المقابر التي نراها في التلفزيونات. حدثنا اخي سعيد عن مقابر اوربا وقال انها تشبه الحدائق والبساتين. يتفسح في شوارعها البشر واحيانا يتعرون ليجلسوا تحت الشمس. مقابرنا كلها موحشة. حتى اننا لم نفكر بزراعة اية شجرة فيها. الارض صحراوية ولن تنبت أي عرق اخضر. ونحن عادة ما نضع الميت في قبره ونهرب من المقبرة. رغم اننا نعيش الموت يوميا لكننا نخشاه كثيرا. نكرهه. القبور القديمة في الوسط. والحديثة على الاطراف. كمال جاء قبل اليوم الى هنا لزيارة المقبرة، اما انا وعلي وسعيد فنزورها اول مرة بعد الحادث.

كان قبر حسن الصغير يجاور قبر عمي حسن. لكنهم كتبوا على الشاهدة الصغيرة اسم ابني احمد. احسست كما لو ان احمد هو الذي يرقد هناك. لكنني لا ابكي رغم ما في داخلي من الالم والحزن. كمال كان يتحسس القبر ويبكي. سأل سعيد عن قبر أبي فدله كمال بالاشارة إليه. قتلى القصف دفنوهم ببقعة واحدة تقريبا. ثلاثة عشر قبرا. قبور صغيرة وأخرى كبيرة. قبر نور حفيدة عمي حسن تجاور قبر أحمد، أو بالأحرى قبر حسن. قلت لكمال يجب تغيير اسم الشاهدة. قال لا أفكر بذلك الآن. إنني أفكر ببناء ضريح صغير

لحسن بعد أن تهدأ الأوضاع وتنسحب القوات الاميركية من العراق. سأبنيه بالطابوق الأصفر واضع قبة صغيرة عليه. واكتب اسم حسن وتاريخ قتله على شاهدة جديدة من المرمر. واذا استطعت ان انحت له تمثالا صغيرا في بغداد سأقوم بذلك. سكت انا وبدأت اتجول بين قبور القتلى. كل قبر قصة بحد ذاتها. اتخيل وجوههم هناك تحت الحدبات الصغيرة المكونة من الحصى والرمل.

ماذا يتكلم الأموات فيما بينهم؟ أكيد انهم يقصون لبعضهم اللحظات القاتلة التي عاشوها في ذلك اليوم.

قبر خالد بن حسين هناك، متآكل بسبب الريح والمطر. كان جنديا في الحرب مع ايران. فر من الجبهة واختفى في بيتهم. كان الوحيد لامه مع طفل صغير. مات ابوه وعمره عشر سنوات. وجدته مفارز الحزب يتمشى على الطريق عصرا فأردوه قتيلا. ومنعوا أهله من اقامة العزاء عليه. قالوا انه جبان فار من معركة الشرف. أخي سعيد كان خارج الوطن حينذاك. شرحت له قصة خالد فلم ينطق بحرف، ظل ينظر الى القبر المتآكل عدة دقائق ويفكر. لا اعرف بم يفكر سعيد وهو يقف وسط المقبرة. هناك قبور لشخصيات من البلدة نعرفها جميعا. قبر مدانة التي التي قتلها زوجها ينتصب في وسط المقبرة تقريبا. ظهرت اشاعة ذات يوم تقول ان هناك من رأى احمد الأعرج يقف عليه ويقرأ الفاتحة. كتبت كلمة واحدة على صخرة مسطحة لا تكاد تبين الا للمدقق. كلمة واحدة فقط هي اسمها: مدّانة. حتى لم يكتب الفاتحة على القبر. كل هؤلاء ماتوا في غيابي، قال لنا سعيد وهو يتطلع الى قبور الجنود الذين سقطوا في الحرب العراقية الايرانية،

والشيوخ الذين ماتوا من الكبر، والأطفال الذين غرقوا في الفرات أو خطفهم الموت لهذا السبب أو ذاك. كدت أقول لأخي سعيد: الحياة لا تتوقف معك ام بدونك، فقد عملنا في معامل وشركات وطبخنا رزا فاسدا وتزوجنا وأنجبنا. فرحنا وحزنا. بنينا بيوتا وزرعنا أرضا. وسنموت ذات يوم. سواء كنت انت موجودا في الوطن ام لا. لم أقل ذلك لسعيد.

كمال لم يبارح قبر حسن الا قليلا.

يقف مع علي او سعيد. يتجول بين الأموات الذين عرفهم ذات مرة، ثم يعود الى البقعة ذاتها: قبر حسن. سلام بن احمد الأعرج الذي انتشلته من تحت الماء لا يبعد سوى عشرين مترا عن قبر مدانة. كان يمكن أن يكون ابنها لو كانت الشائعة صحيحة. نظرت الى السيارة الواقفة هناك. الرايتان البيضاوان تخفقان بريح الشتاء. لا أريد أن ادفن هنا، قال سعيد. المكان موحش جدا. في الليل خاصة. تخيلوا الظلام وهو يلفع كل هذه الصحاري وهذه القبور العارية. ليس هناك شجرة ولا طير ولا حيوان. ليس هناك سوى الظلام والنجوم والغبار القادم من الصحراء. ماذا يفعل الأموات في الليل؟ لا، لا أريد أن أدفن في هذا المكان البائس. قال له علي لكنه مكان لأبي وجدي وكل المعارف في البلدة. صعب أن يدفن الانسان في بلد غريب. على الأقل يقرأ أحد عليه الفاتحة بين الحين والآخر، ويترحم على عظامه.

- ما الفائدة من الرحمة اذا تحول المرء الى عظام؟ الشاة المذبوحة لا يهمها السلخ كما يقول المثل.

فكرة السفر تستولي على ذهن سعيد. هكذا استشففت من كلامه وسلوكه في الفترة الأخيرة. الأحلام التي حملها بعد رجوعه الينا لم تتكشف سوى عن مآس واحباطات، كما كتب في عموده الأسبوعي في الجريدة. تجول بين كل القبور، وقرأ أسماءها، وحاول أن يعرف قصص موتها من علي وكمال، ثم كان يقف بين حين وآخر متأملا في الصحراء المحيطة والطريق السريع، ويلتفت الى بيوت البلدة وبساتينها ودخانها وسياراتها وتضاريسها، كما لو كان يسجل كل تفصيل من التفاصيل في عقله. كما لو كان يريد مرة ثانية وضعها في جعبة الذاكرة متزودا بها لسنوات غربة ثانية. ذرى الكينا، ونبات الحميض، ولون الدروب المتوغلة في ثنايا البلدة، وروائح الطعام والخبز. وجوه الأجيال الشابة. نداءات الديوك في الأفجار. زرقة مياه الفرات. العيون السود لفتيات البلدة والتي كان يدقق فيها بعمق. يريد أن يمارس اللعبة ذاتها. لعبة العيش على الذكريات. لكنها هذه المرة ستكون بالتأكيد ذكريات دائمة يعيش عليها الى أن يوافيه الموت في أحد البيوت النائية. وسيدفن في مقبرة خضراء، ذات شوارع وأشجار وموسيقى مثل التي حدثنا عنها.

من جهة المدينة سمعنا اصوات انفجارات مدوية، قال علي انه قصف أميركي للمجاهدين، فيما قال كمال كلا انه انفجارات قذائف هاون في موقع الحامية الأميركية القريبة من الجسر. لم نر دخانا متصاعدا، ولم تغير الطيور من حركتها في السماء. وفي الطريق الدولي ظلت الشاحنات القادمة من سورية والأردن تتلاحق متجهة الى بغداد. وتمر بين فترة وأخرى دورية اميركية مؤلفة من سيارات همر،

تسير متمهلة، فيما تتبعها سيارات مختلفة تضع مسافة مئة متر على الأقل بينها وبين الهمرات.

وضع المشيعون قطعة حديدية وسط ضحايا الحادث كتبوا عليها: هنا يرقد شهداء القصف الأميركي بتاريخ 2 -11 - 2005 على بلدة الحامضية. يستطيع المار من الطريق المجاور قراءتها بوضوح. ترى هل قرأها المترجمون الأميركان المرافقون للدوريات؟ لكن من يهتم؟ الم يقل لنا الجندي الأميركي الواقف على رقبة الجسر إن الحادث كان خطأ؟ وهل ينفع الاعتراف بعد حدوث المجزرة؟ تكلم البعض عن تعويضات، غير ان سجلات الجيش الأميركي نصت على أن الموقع المقصوف موقع ارهابي. حسن ارهابي. انور ونور وأبي وعمي. والباقون كلهم ارهابيون. هل تستطيع حجج أخي كمال تغيير ما صادقت عليه القيادة العسكرية الأميركية؟ كلا بالطبع. حتى القضية التي قال أخي سعيد انه سيرفعها ضد أميركا لن تجد نفعا. الى اين يرفع القضية؟ الى مجلس الأمن؟ الى الأمم المتحدة؟ الجامعة العربية؟ سيضحكون عليه بالتأكيد. فهناك مئات يقتلون يوميا. لا أحد يهتم حتى بتدوين ملابسات القتل.

في هذه الأثناء جاءت سيارة الدكتور ذاكر المرسيدس من جهة البلدة. انها المرسيدس السوداء التي نعرفها جميعا. حين ترجل من السيارة قال لنا بصوت عال: لم لم تخبروني بمجيئكم الى المقبرة؟ اريد ان ارى قبر عمي حسين. مررت على بيت كمال فأخبروني انكم ذهبتم الى المقبرة. كان ذاكر يرتدي بنطالا بنيا ومعطفا بنيا هو الآخر قصيرا يصل الى ركبتيه فقط. اصبح ذاكر أكثر سمنة. اليوم رأيت

قوات عراقية تقف على جسر الرمادي. قال ذاكر. كانت حركة السير سهلة. لم نقف سوى نصف ساعة. كما أنهم بدأوا يفتشون السيارات ويدققون بالهويات. اعتقد أن الأمور تتطور نحو الأفضل. ما الفائدة، رد كمال، بعد أن خربت بيوتنا ودفنا نصف العائلة في المقبرة؟ جيش عراقي أفضل من جيش اميركي. على الأقل يمتلكون لغة مثل لغتنا، قلت أنا موجها الحديث الى كمال. كان المجاهدون يسمون الحرس الوطني العراقي بالحرس الوثني. تسمية ظالمة حسب ما أعتقد. نحن بحاجة الى جيش وطني مهما تكن الظروف. نحاول الا نمكث طويلا في المقبرة، قال ذاكر بعد أن قرأ الفاتحة على أرواح الضحايا. يمكن أن يظن الجنود فوق الجسر اننا نزرع عبوات ناسفة أو نخبئ سلاحا هنا. اكيد هم يراقبوننا بمناظيرهم الآن. فكرة جيدة وضع رايات بيض على السيارة.

دعا كمال الدكتور ذاكر على الغداء، وأخبره انهم يطبخون رأس عجل. يعرف كمال ان الدكتور يحب رأس العجل. وافق الدكتور ذاكر. ومثلما في الأيام الماضية، والسنوات التي أتذكرها بدأت بضعة تنانير في البلدة تعد النار للخبز. الدخان الأزرق يتصاعد من بين ذرى النخيل. يتحول الى غييمات صغيرة، تتحرك ببطء في السماء. في الحقول المتاخمة للصحراء بقر يرعى بهدوء، ونساء يجلبن العشب الى البيوت. رائحة الشتاء تدعو البشر الى الفرح والسعادة. لكننا حزينون جدا. أنا أمتلئ حزنا. حزن بقدر سعف النخيل والعصافير والبقر في المراعي وذرات الغيوم المارقة على استعجال. حزين

لأنني بدأت اوقن ان اخي سعيد سيغادرنا ثانية الى الخارج. قد لا نراه مرة أخرى. لا يريد أن يدفن في المقبرة. يعني انه لن يرى البلدة ثانية.

ركب أخي سعيد مع الدكتور ذاكر، وركبنا انا وكمال مع علي. هذا خبر عظيم، قال علي. ما هو الخبر العظيم؟ سأله كمال. جيش عراقي في الرمادي. سيكتسحون هؤلاء القتلة. الذين يريدون ارجاعنا الى عصور الظلام. بالعكس هذا يقود الى مزيد من الدماء. ستشتد المواجهات بالتأكيد. وسيموت ناس آخرون، وشلال الدم لن ينقطع. قال كمال. نحن نعيش شلال الدم ذاك منذ عشرين سنة. يجب أن ندفع ثمن تخلفنا. وندفع ثمن الحروب التي خضناها.

وبدأت انا أحس بالجوع. بدأ وجع خفيف يغزو رأسي. قال الدكتور مجيد أن حالتي مستقرة. لكنها هناك تلك الشظية الملعونة. لا تستقر في رأسي، بل في روحي.

◆◆◆

بدأت استمتع كالسابق بمضاجعة لمياء، وبالتدخين والطعام. وعدت للنوم في غرفتنا مع لمياء والأولاد. كما رجعت الى عادتي في مشاهدة الأفلام الأجنبية على القناة الثانية للأم بي سي. وجود هذا الكم الهائل من الفضائيات رحمة جديدة هطلت علينا. أمضينا ثلاثين سنة لا نرى في التلفزيون سوى صورة الرئيس. بدأت الكوابيس تخف في الليل. وشهيتي كادت تعود الى عهدها السابق. اقترح علي كمال أن احاول ايجاد وظيفة لي في الدولة كمحاسب. لكنني لست مستعجلا على ذلك، فالرمادي رغم انها امتصت الصدمة لكنها غير مأمونة لحد الآن. بنوك الرمادي تتعرض الى التفجير والاعتداء. حفارة أبي

وضعنا لها سائقا وهي تشتغل في معمل الحصى القريب من كربلاء. ورغم شحة الكاز وانقطاع الكهرباء الدائم والموت، فالعمل ظل مستمرا. صاحب المعمل أصدر هويات لكل العاملين تثبت أنهم يشتغلون في المنطقة. هذا ما سيبعدهم عن الشكوك. كثير من المجاهدين يتسربون الى مدن الجنوب لتفجير انفسهم هناك أو لتنفيذ عمليات. واليوم سيغادر سعيد وزوجته الى سورية مجددا. أشعر بالحزن لهذا. هكذا أخبرنا في الأسبوع الماضي. باع أثاث بيته، ورتب أوراقه، وجهز نفسه، روحيا، كما قال، للسفر.

في الأسابيع الأولى من وصوله كان سعيد أكثر حيوية وتفاؤلا. كان يريد أن يعرف كل شيء في الحياة الجديدة التي نحياها. اكتشف طيرا جديدا في البلدة، قال إنه لم يكن موجودا قبل رحيله. أي قبل أكثر من عشرين سنة. فعلا لم نلحظ هذا الطائر سابقا. طائر أسود لكنه لا يشبه الزرزور أو البلبل أو عروس النخيل. صوته جميل خاصة في الصباح. وهو من الطيور النادرة التي لا نعرف اسمها. كل الدروب القديمة، وقد اندثر قسم منها، جال فيها، متذكرا الحكايات والقصص والطرائف التي وقعت عليها.

زار موقع المدرسة الابتدائية التي تعلم فيها. سبح في المناطق القديمة التي شهدت طفولته. فتش عن النباتات البرية في الحقول. زار حسيبة المقعدة وأحمد العبد وأمونة وكل من عاقر ذاكرته خلال غيبته. حكت له لمياء حكايات نساء عرفهن أثناء مراهقته وما انتهى اليه مصيرهن. وحين أخبرناه عما جرى لمبنى مديرية الأمن قرر الذهاب الى هناك صباحا لرؤيتها. فعلا جهزنا سيارة علي وسيارته وذهبنا الى

هناك. تقع المديرية قرب اعدادية الزراعة القديمة. في أطراف مدينة الرمادي. وجدنا المبنى مخربا تماما. وهو يتألف من طابقين. كان مكانا مرعبا قبل سنوات. حين جلبوني الى المبنى احسست انني لن أرى البلدة مرة أخرى. طبعا سالوني عن أخي سعيد الذي ظنوه انه في الجزائر. قلت لهم لا اعرف عنه شيئا. طلبوا مني التوقيع على تعهد يقول انني سأحكم بالاعدام اذا ما عرفت شيئا عن سعيد ولم أخبر به السلطة. وقعت. وحين خرجت من ذلك المبنى شعرت بأنني مولود من جديد. ما أكبر الفرق بين الأمس واليوم. أراد سعيد رؤية ذلك البناء المرعب، ليحفظه في ذاكرته.

كانت هناك أكداس من الأوراق تحيط بالمبنى. وثمة بقع من السواد على الجدران.

أخبرنا أخي علي أن البناء أحرق بعد أيام قليلة من سقوط الدولة. من أحرقه لا أحد يعرف. ذكر علي انه كان قريبا من اعدادية الزراعة حين جاء مجهولون وأحرقوا المبنى. قيل انهم رجالات الأمن أنفسهم، أحرقوه كي لا تبقى سجلات تدينهم. وقيل أن بعض السجناء السابقين هم الذين احرقوا البناء انتقاما من السلطة الآفلة. على أية حال وجدنا المكان موحشا. الغرف منزوعة الأبواب والشبابيك. وبقايا رماد على الأرضيات. لكن رغم ذلك وجدنا أكداسا من الملفات والأوراق تتبعثر في الممرات والغرف. راح سعيد يقرأ في الملفات تلك، يعزل قسما منها ويكومه جانبا. وثائق هامة قال. عبر هذه الوثائق يستطيع كتابة الكثير عن آليات عمل السلطة السابقة. كانت هناك تقارير حزبية وأمنية عن كل ما كان يحصل في المدينة وفي القرى.

وكلاء أمن في البنوك والمدارس والمستشفيات والدوائر الحكومية والأحياء، كل وكيل يرفع تقريرا شبه يومي عن المكان الذي وظف فيه. حتى صباغو الأحذية كان بينهم وكلاء ينقلون أخبار هذه الطائفة المسكينة. وكنا نقرأ ونجمع الوثائق الغريبة ثم نكدسها جانبا لسعيد. مشطنا الطابقين اللذين تتكون منهما البناية وجمعنا ما يملؤ كيسا كبيرا، وضعناه في سيارة سعيد الأوبل.

سأله كمال عما يستفيده من هذه الأوراق القديمة، فقال ربما يستخدمها في تأليف كتاب عن أيام ذلك الزمن، أو يحولها الى مقالات، أو يترجمها الى الانكليزية. قال له علي لماذا لا تبيعها؟ لكن من يشتري هذا السقط من الورق، بعد أن انهار كل شيء. الحياة لن تعود الى الوراء.

في ذلك الليل الخريفي جلسنا في صالون كمال وبدأنا بقراءة كل تلك الأوراق.

كانت مهزلة بحق. كيف استطاعوا تدوين كل ذلك الهراء في مديرية الأمن؟ بعض تلك التقارير تتناول حتى اللقاءات اليومية بين موظف وآخر. أو من زار فلان في المنطقة الفلانية. لم يعثر سعيد على التقارير الأمنية التي كانت تكتب عنه أثناء ما كان غائبا. في الصباح التالي حمل سعيد تلك الأوراق في أكياس صغيرة وأخذها معه الى بغداد.

ترى هل سيأخذها معه الى سورية أيضا؟ لكن بالتأكيد سيحمل معه ذكريات ثلاث سنوات عن البلد. عاش في القرن الحديث المسمى بالعراق. أكيد فهو لا يستطيع البدء من الصفر. تغيرت

مفاهيمه وأفكاره كثيرا خلال السنوات العشرين من غيابه. ينبغي لنا ان نتجاوز الأزمة، ليس أمامنا من طريق آخر.

شخصيا بدأت اشعر انني تجاوزت ازمتي. بدأت أخرج الى المحلات القريبة وأصلي الجمعة فقط مشاركة للآخرين، وازور الدكتور ذاكر في المجمع الطبي. راجعت طبيب اسنان في الرمادي فرمم لي السنين المتحركين وملأ لي فراغات ما تساقط في الفك العلوي. في المجمع الطبي كان الدكتور ذاكر يخبرني عن قصص وحكايات ما يجري في البلدة. أصبح المجمع الطبي بؤرة للأخبار. فهنا يلتقي الجميع. النساء، جرحى العمليات الجهادية، ضحايا الانفجارات، والاغتيالات. إنني أسمع فقط، وأحاول ان لا أعطي رأيا. عشنا فترة هدوء نسبية بعد حادث قصف بيت عمي حسن. بدأ المجاهدون يبتعدون عن البيوت اذا ما أرادوا قصف القوات الأميركية. اذ سمعوا كثيرا من النقد والتوبيخ حول ما جرى. البعض حملهم مسؤولية المجزرة. والبعض بدأ يتكلم صراحة عن وجود قصد مسبق بتوريط السكان في ما يجري. فترة الهدوء تلك لم تدم طويلا. رحنا نسبح في الفوضى مجددا. وكان الضحية هذه المرة أحمد الأعرج. اغتاله شباب ملثمون كانوا يستقلون سيارة أوبل عندما كان جالسا في محل الجزار. كنت أنا أجلس في الحديقة على كرسي. أدخن وأشرب شاي الضحى، حين سمعنا أطلاقات نار من جهة المحلات. الذبابة كانت تحوم في السماء منذ الصباح. كمال رحل الى وظيفته. وهو مشغول في نفس الوقت بالدعوى التي تكفلها ضد الأميركان

للمطالبة بتعويضات عن بيت عمي والضحايا الأبرياء. قال إنه سيزور المحافظة.

غبار كثيف تصاعد في أفق البلدة. هذا ليس وقته لكنه زحف نحو البيوت وتغلغل في أغصان الشجر، ثم راح ينفذ الى الغرف من بين شقوق الشبابيك والأبواب. الغبار الأحمر القادم من صحراء الجزيرة والشامية، فالبلدة تلبد ما بين صحرائين. وأنا جالس في الحديقة كنت أرى سعف النخيل يتحول الى أصابع شبحية بفعل الغبار. تندغم الأشياء بفعل تلك الذرات الصغيرة وتتحول الى عجينة متحركة. يوم السفر والفراق. لا أدري ماذا سيأتي بعد هذه العاصفة الغبارية ورحيل أخي سعيد.

أمي كانت تسقي الباميا والطماطم والباذنجان في أرضنا الخلفية بمياه الموتور الكهربائي. لماء تكنس البيت. الغبار خلق لها عملا اضافيا. والأطفال في المدرسة. الاطلاقات كانت سريعة ومتواترة، ساد بعدها الهرج والأصوات العالية. الأخبار في مثل هذه الحالات تسري سريعا في البلدة. تجلبها النساء المتسوقات والرجال الذين يعملون في الحقول، وأصحاب السيارات المتغلغلة مثل نمل في طرقات البلدة.

شاهدت مؤذن الجامع حمادي يركض في الطريق، متجها الى الجامع. لم أكن ألمح سوى رأسه البارز من السياج. قال لي بصوت لاهث: اغتالوا أحمد الأعرج. هزني الخبر عميقا. أحمد رغم أنه يتكلم كثيرا وبوضوح لكنه لا علاقة له بما يجري. فكرت أن للأمر علاقة بمدانة لكنني استبعدت ذلك. فما حصل حصل قبل عشرات السنين،

وتغيرت الحياة كثيرا ونسي الموضوع برمته. مشيت أنا أيضا نحو الطريق. لم استطع اللحاق بحمادي. رأيت سيارات مسرعة تتجه الى المحلات. وحين ارتقيت الطريق المرتفع شاهدت من بعيد مجموعة كبيرة من الرجال والأطفال تتجمع أمام محل الجزار. ما الذي يجري؟

سألت عماد الواقف أمام دكانه. قتلوا أحمد الأعرج، قال عماد بحزن. الحلاق أغلق دكانه، ومحلات تصليح السيارات تركت مفتوحة وذهب الجميع على ما يبدو الى مكان الحادث. شاهدت نساء مولولات يصعدن من المجمع الطبي متجهات الى القتيل. وجدت الحشد كبيرا ولم استطع رؤية النقطة التي يحدقون اليها. يبدو أن أحمد ما زال في المكان. قال شاب يقف خلف الجميع إن احمد كان يجلس على كرسي أمام دكان الجزار حين أطلق الملثمون عليه النار من مسدسات صغيرة. أردوه قتيلا وفروا نحو الشرق. لكن الغريب في حكاية أحمد أن قتلته طعنوه بعد القتل بالسكين أكثر من طعنة في وجهه. ربما كانوا يوجهون الطعنات الى فمه الذي كان يتكلم عنهم كثيرا. وربما حاولوا قطع لسانه وأخذه معهم. من يدري.

في الأيام القادمة سنعرف أكثر عن تفاصيل القضية. مضاف اليها بالتأكيد تفاصيل قد لم تجر حقيقة. مثلما حصل لبيت عمي حسن. فقد كانت المبالغات والاضافات والبهارات أكبر بكثير مما جرى في الواقع. ستتسلى البلدة بحادث مقتل الأعرج بعض الوقت مثلما تسلت في أحداث غيرها. هذه هي حياتنا وكما عشتها منذ اكثر من ثلاثين سنة. مشينا بأحمد المحمول في بطانية عتيقة جلبها عبيد من بيتهم القريب نحو المجمع الطبي. كان الدكتور ذاكر هناك. البعض

اعتقد ان احمد لم يزل على قيد الحياة. لكن الفحص أكد انه مات منذ نصف ساعة تقريبا. هذا رغم أن الدماء ما زالت تسيل من ثقوب الطلقات. أحسست برأسي يؤلمني. وثمة شواش وخوف ورجفة في كافة مفاصلي وأعضائي. تركت الحشد وعدت الى البيت.

وجدت أمي ولمياء وبثينة وحسين وأحمد واقفين أمام باب البيت.

كانت أمي تبكي بصمت.

لم يعد عندي طاقة على الكلام.

صعدت الى السطح. المكان الذي آوي اليه حين أرغب بالاختلاء بنفسي. وكانت البلدة تحت بصري. بدأ الغبار يرحل عن البلدة. هب هواء خفيف من ضفاف الفرات. وكما في أي يوم آخر، ومنذ اكثر من ثلاث سنوات، كانت الذبابة تحوم في السماء. جسم ابيض طائر في السماء، يراقبنا. بيت أحمد الأعرج صار قبلة للزائرين والمعزين ومتصيدي الأخبار. سيارات وراجلة ونساء وأطفال يتجهون الى ذلك البيت العالي المحاط بعشرات النخيل. رجالات البلدة القدامى ينتهون واحدا بعد الآخر. أبي وعمي حسن وأحمد الأعرج والبقية تأتي.

لم يتغير شيء في السماء، لكن الأرض تغيرت كثيرا. أرض البلدة.

في نقطة بعيدة من الصحراء تقوم المقبرة. في قبر جديد سيدفن أحمد الأعرج. وسيرفعون رايات بيض حين يذهبون لدفنه. سيزداد خوتي واحدا. لن يفصله عن قبر مدانة سوى امتار قليلة. تلك سنة الحياة كما كان أبي يردد. شوارع البلدة ظلت جارية بالسيارات والبشر. أصوات انفجارات بعيدة. أصوات مروحيات تحوم فوق جزيرة

الفرات قرب الجسر. نخيل البلدة، وكما أراه من السطح، يتناقص قليلا قليلا. لم يعد أحد يهتم بزراعة النخيل. تجارة ما عادت مربحة. زوجة خالي تحلب بقرتها في الفناء الخلفي للبيت. نجاة زوجة أخي كمال تكنس الحديقة الأمامية، التي شهدت جلساتنا وحواراتنا. بحججه المنطقية والباردة كان سعيد يقنعنا دائما. يقنعنا في تبرير، وشرح، ما يجري في حياتنا. كل ما كان يقوله صحيح، الا أن ذلك الصحيح لم يغير الجحيم الذي نعيشه.

الجميع على صواب في هذا البلد. مع ذلك فنحن نموت يوميا. نموت ونشقى.

أنهى حمادي أذانه قبل لحظات. وتجمعت غيوم سود فوق بستان علي النجرس.

قد تمطر في الليل. أو قبل ذلك حتى.

افكر جادا بايجاد وظيفة حكومية لي. العمل في الحفارة لم يعد يناسبني. بكالوريوس في المحاسبة ويشتغل سائق حفارة!! حتى زوجتي لمياء صارت تخجل من عملي هذا. هو غير مضمون أيضا، وينبغي اعالة أمي وزوجتي والأولاد.

خلف المقبرة يسيل الطريق الدولي بالسيارات من مختلف الأنواع. شريان الحياة بين بغداد ودمشق وعمان لم ينقطع، رغم كل المصائب التي وقعت علينا. كانت السيارات تبدو من سطحنا مثل نقاط صغيرة متحركة. في واحدة من تلك النقاط يجلس أخي سعيد مع زوجته السورية. هذا هو اليوم الذي قال انه سيغادر فيه. سيعود الى غربته الطويلة دون أن يودعنا.

هو لا يعرف أن الشخص الوحيد الذي لم ينس شكله قد قتل اليوم. لابد أن الخبر سيقع عليه وقوع الصاعقة. في النهاية قتل أحمد العبد. تلك النهاية التي لم يتوقعها له أحد. وحاولوا قطع لسانه بسكين حادة.

المطرقة والسندانة.

والجميع يغذ السير نحو الغروب. نحو الشمس الآفلة.

انجلى الغبار.

تموجات الألوان تترى على البيوت والنخيل والحقول. لا بد أن أخي سعيد لاحظها من خلال نافذة السيارة الجي أم سي التي ستوصله الى الشام. الألوان التي سيختزنها ذكريات لسنواته القادمة. المشاعر التي يحسها من يترك الوطن دون أمل بالرجوع لم أجربها. لكن يبدو أنها مشاعر حادة. لا يستطيع فهمها الا من يمر بها.

خلفي سمعت دبدبة أقدام على الدرج. ثمة شخص قادم الي. كانت الخطوات ناعمة وصغيرة.

أطل ابني حسين من فتحة الدرج. بوجهه الأسمر الصغير، وأسنانه البارزة.

جاء راكضا نحوي.

- بابا أمي تقول انزل الى العشاء.

- ما هو عشاؤنا الليلة؟

- سمك.

أمسكني حسين من يدي، وجرني نحو الدرج.

وبدأت أولى قطرات المطر تسقط على السطح.

مكتبة نوميديا 221

Telegram@ Numidia_Library

الأعمال الروائية

في نقطة بعيدة من الصحراء تقوم المقبرة. في قبر جديد سيدفن أحمد الأعرج. وسيرفعون رايات بيض حين يذهبون لدفنه. سيزداد الموتى واحداً. تلك سنة الحياة كما كان أبي يردد. شوارع البلدة ظلت جارية بالسيارات والبشر. أصوات انفجارات بعيدة. أصوات مروحيات تحوم فوق جزيرة الفرات قرب الجسر. نخيل البلدة، وكما أراه من السطح، يتناقص قليلاً قليلاً. لم يعد أحد يهتم بزراعة النخيل. تجارة ما عادت مربحة. زوجة خالي تحلب بقرتها في الفناء الخلفي للبيت. نجاة زوجة أخي كمال تكنس الحديقة الأمامية، التي شهدت جلساتنا وحواراتنا. بحججه المنطقية والباردة كان سعيد يقنعنا دائماً. يقنعنا في تبرير، وشرح، ما يجري في حياتنا. كل ما كان يقوله صحيح، الا أن ذلك الصحيح لم يغير الجحيم الذي نعيشه.

الجميع على صواب في هذا البلد. مع ذلك فنحن نموت يومياً.

نموت ونشقى.

التكوين 12